كلمات مصرية

بقلم

حلمى سلام

دار الهلال

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحـــة حسنـيـن

اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمرى

الإسكندرية

هذه الكلمات

رات هذه الكلمات النور ، لاول مرة ، علي صفحات مجلة « الفجر » ألتي كان لي ــ بمعاونة كتيبة صحفية مصرية شابة ــ شرف تاسيسها في « الدوحة » عاصمة دولة قطر ، علي مدي سنتين هما كل عمرها الذي بدأ من اول يناير سنة ١٩٧٤ .. ولم يمتد الى أكثر من آخر ديسمبر سنة ١٩٧٦ ، بعد ان هبت عليها ــ من الجهات الاربع ــ رياح المتاعب ، فتوقفت عن الصدور . اذ كانت قد جاءت الى الساحة الصحفية العربية وقد جعلت أول مادة في دستورها أن تكون خالصة للعرب جميعا .. تقول كلمة الحق لوجه ألحق وحده ، لاتنشد رضاء زيد .. ولا تحاذر غضب عبيد ، فكانت ألنتيجة انها اغضبت زيدا .. وعبيدا معا . فصودرت في العراق مرات . ومنعت نهائيا ، من دخول سوريا . وصودرت في الكويت مرات . وصودرت في مصر مرة أو مرتين . ومنعت مرات من التوزيع داخل قطر نفسها ، الا بعد أن نزع منها بعض صفحاتها . !!

لكن « الفجر » لم تعبأ بهذه المصادرات جميعا ، ومضت في طريقها لا تنظر الى يمين .. ولا الى شمال .. فقط ، كانت تنظر الى امام .. وأمامها كان مكتوبا بالخط العريض : كلمة الحق لم تدع لي صديقا .

ولقد كانت آخر رياح المتاعب التي هبت على « الفجر »

عندما طلبت مني السلطات القطرية مغادرة « الدوحة » خلال ثمان واربعين ساعة .. بسبب مقال كتبته تعليقا على « خبر » انفردت بنشره صحيفة « السياسة » الكويتية . ومؤداه « أن العدة تعد في « القاهرة » لاعلان السيدة « جيهان السادات » نائبة لرئيس الجمهورية » !! ..

وغضب أصحاب « الفجر » مما قررته سلطات قطر في شاني . رأوا فيه تعديا على كرامتهم الشخصية من ناحية .. وتعديا ، من ناحية أخرى ، على النهج الذى اختاروه ، بانفسهم لانفسهم ، ولم يكرههم عليه أحد .. فطلبوا من السلطات القطرية ـ كتابة ـ أن تعيد النظر فيما قررته تجاهي ، والا .. فانهم سوف يغلقون « الفجر » .

كان تقدير أصحاب « الفجر » أن صحيفتهم ، بالنجاح الكبير .. والسريع .. الذى حققته في زمن قياسي ، بين شعوب المنطقة .. سوف يجعلها اعز على السلطات القطرية من أن تكون سببا في قصف عمرها . لكن أصحاب « الفجر » نسوا أن ذلك النجاح الكبير .. والسريع .. الذى حققته صحيفتهم ، باستقلالها الحقيقي عن جميع الذين يمسكون بأيديهم ذهب المعز .. وسيفه ، بمن فيهم حكومة قطر نفسها ، لا يمكن الا أن يكون هو نفسه السبب الاول .. والاخير أيضا .. لمحاولة وادها .

ولقد كان ..

رفضت السلطات القطرية الاستجابة لمطلب أصحاب « الفجر » . فقرروا ، من ناحيتهم ، أنها النهاية ... أغلقوها . « واذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت ؟ »

.. فلن تجد المسكينة ماتستطيع أن تجيب به سوى حولها : حرصت ان اقول « كلمة الحق » لوجه الحق وحده .. فأوردني « حرصي » موارد الهلاك .!!

***

على صفحات هذه المجلة التي أوجزت لك ، فيما تقدم من سطور ، قصة حياتها وموتها، وعلى مدى سنتين هما كل عمرها .. مضيت أكتب هذه الكلمات . كنت أكتبها ، أسبوعيا ، تحت عناوين مختلفة .. وأيضا بتوقيعات مختلفة .. فبعضها كتبته تحت عنوان : « شعاع الفجر » ووقعته باسمي الصريح . وبعضها الآخر كتبته تحت عنوان : « مجرد ملحوظة » ووقعته بتوقيع : « الملاح الاسمر » . وبعضها الاخير كتبته تحت عنوان : « رأي» .. ووقعته مرات باسمي .. وتركته مرات بلا توقيع . هذا الى جانب سلسلة مقالات عن أسرار ثورة ٢٣ يوليو تحت عنوان : « رحلة .. في أسرار الامس » .

وحين عدت الى قراءة ماكتبته من كلمات ، بعد عشر سنوات من رحيل « الفجر » عن عالم الصحافة العربية ، وجدتها ــ لدهشتي ــ وكأنها كتبت الساعة ، وليس من عشر سنوات مضت . فالمسرح العربي لايزال هو نفس المسرح .. والابطال لايزالون هم نفس الابطال .. مع تغييرات طفيفة في شخصيتين أو ثلاث : أنور السادات في مصر . وسليمان فرنجية في لبنان . والشاه محمد رضا بهلوى في ايران . لكن الرواية « المأساة » التي كانت تدور ، من عشر سنوات ، فوق خشبة هذا المسرح ، لا تزال هي هي دون ما تغيير ولا تبديل .. اللهم الا أن يكون مرور الايام قد زادها سخونة وحدة .. وزادها ،

بالتالي : قدرة على تمزيق القلب وسفح الدموع .!!

وبينما انا ماض في قراءة هذه الكلمات .. اذا بي استشعر نحوها قدرا من الاعزاز لها .. والاعتزاز بها . ليس بوسعي أن اصفهما . ولم يكن مصدر هذا الاعزاز .. وذلك الاعتزاز .. هو انني صاحبها . وانما كان مصدره انها كشفت لي — في غير مواربة — عن ان قوة ما ، في الغربة ؛ لم يكن في مقدورها ان تحملني على أن اغير جلدي او ان تجعلني أنسى «مصريتي» كماينساها كثيرون،للأسف الشديد ، عند الباب الخارجي لمطار القاهرة .!! بل لقد احتفظت بمصريتي معي .. في دمي .. وتحت جلدي . وانه لصحيح أن احتفاظي بمصريتي .. في دمي .. وتحت جلدي .. قد جر على متاعب كثيرة . الا أنني — والحق اقول — كنت جد سعيد بهذه المتاعب . ولئن كان «شوقي» قد قالها من منفاه في الاندلس :

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني اليه في الخلد نفسي

فان « قطر » لم يكن بهاخلد .. ولا شبه خلد .. يمكن ان يشغلني — ولو للحظة — عن « مصر » وما يحدث فيها .. ومايحدث لها . ومن هنا ، جرى قلمي بكلمات كثيرة عنها : عن زعامتها وريادتها .. عن قادتها وزعمائها .. عن صحافتها وكتابها .. عن فنونها وفنانيها .

***

واني لاحسب أن كثيرين قد قراوا هذه الكلمات ، من قبل ، في مجلة « الفجر » . ولكن .. اكثر منهم ، ولاشك ، الذين لم يتح لهم أن يلتقوا بها .. ولا ان

يقراوها .. ومن هنا جاء حرصي على أن أقدمها لهم بين دفتي هذا الكتاب ، لكي ماتكون شاهدا .. ودليلا بين ايديهم .. على أنه اذا كان ثمة كتاب يتغيرون .. ويتلونون .. ويتمتعون ببراعة « الحرباء » في تبديل جلودهم .. فان ثمة كتابا آخرين استطاعوا ـ تحت أصعب الظروف .. وايضا تحت اقسى الجراح ـ ان يحتفظوا لانفسهم بالزانهم .. وبتوازنهم .. وبصورتهم التي عرفهم الناس عليها .. فلم يتغيروا ، ولم يتلونوا ـ ولم يبدلوا ـ ببراعة الحرباء ـ جلودهم .. ولم يملوا من ان يرددوا للناس .. ولانفسهم ، في كل آن .. وفي كل مكان :

بلادي وان جارت علي عزيزة
واهلي وان ضنوا علي كرام

حرب أكتوبر ...
والابرة والمئذنة

مهما جحد الجاحدون فضل « حرب أكتوبر » .. ومهما انكر المنكرون قدرها ، ومهما تطاول المتطاولون عليها . فلسوف تبقى هذه الحرب ـ على الرغم من ذلك كله ـ علامة مضيئة فى تاريخ الإمة العربية ، وفى تاريخ الانسان العربى ، وفى تاريخ الارادة العربية .

فلقد استنقذت « حرب أكتوبر » ، الشرف العربى .. والكرامة العربية .. من بئر عميقة كانا قد هويا اليها . ولم يكن لاستنقاذهما من هذه البئر العميقة ـ فى نظر الكثيرين .. ان لم يكن فى نظر الجميع ـ من أمل . كذلك لم يكن لاخراجهما منها ـ فى نظر الجميع ـ من سبيل . فلما تحقق الامل ، ووجدت السبيل .. نسى الحاقدون ، والمنكرون ، الحرب نفسها .. وراحوا يتلمسون « ثغرة » وقعت فيها ، واعتبروا أن هذه «الثغرة» هى النتيجة التى انتهت تلك الحرب اليها .!! أما عبور القناة ، بعد أن كان قد استقر فى يقين الجميع انها ان تعبر ، فلا شىء . واما سقوط « خط بارليف المنيع » ، بعد أن كان قد استقر فى يقين الجميع انه لن يسقط ، فلا شىء . واما انهيار أسطورة جيش اسرائيل القوى ، بعد أن كان قد استقر فى يقين الجميع أنه جيش لايهزم ، فلا شىء .. وتلك هى طبيعة الحاقدين ، أنهم يرون « الابرة » ويعجزون عن رؤية « المئذنة » . الا ان الحقد

مهما اشتعل .. ومهما كبر حجمه .. وكبر ، وكبر ، فانه لن يستطيع ان يحول « المئذنة » الى ابرة .. هذه هي قوانين الحقيقة . وهي أقوى من الحقد ، واعظم .. . واذا كان الحقد أسود ، فان الحقيقة بيضاء .. وما كان للسواد أن يحجب شيئا ابيض .

والحقيقة الناصعة البياض هنا ، هي انه — في ٦ اكتوبر سنة ٧٣ — انتفضت ارادة الرجال ، وعظمة الرجال وشجاعة الرجال .. أنتفضت لتطهر عرضا ، وتستنقذ شرفا ، وتخلص كرامة من وحل أسود كان قد لطخها .

ولم يكن العرض ، والشرف ، والكرامة .. عرض فرد ، ولا شرف فرد ، ولا كرامة فرد .. وانما كان عرض أمة ، وشرف أمه ، وكرامة أمة .. شاءت الاقدار أن تظن بقادتها ألظنون ، وأن تظن بمقاتليها الظنون .. بعد أن رأى العالم ، وسمع ، انهم فقدوا كل شيء .. كل شيء .. في ست ساعات ، وليس أكثر .!!

في ضوء تلك النهاية الاليمة التى كنا قد انتهينا اليها فى حرب ٦٧ — كان ينبغى أن تقيم « حرب أكتوبر » . لكن الحقد ، كما ذكرت ، أسود . والسواد عمى . وماكان باستطاعة أعمى أن يرى الراية العربية ، وقد غرسها المقاتل العربى غرسا فى قلب « بارليف » .. ولانه أعمى ، فانه لم يستطع أن يرى من تلك الحرب شيئا غير «الثغرة» .. ولانه أعمى فانه لم يستطع أن يقرأ التاريخ ، ولا أن يعرف شيئا عن هزيمة الحلفاء ، فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، فى « دنكرك » . ولا أن يعرف شيئا عن تراجع الحلفاء حتى العلمين . ولا أن يعرف شيئا عن تراجع الروس ، فى نفس الحرب .. وأمام جحافل الالمان ، حتى

ابواب « موسكو » .. كل الذى استطاع أن يعرفه هو « الثغرة » فى حرب اكتوبر .. وكأن « ثغرات » خطيرة .. خطيرة ، قبلها ، لم تحدث . وكأن « ثغرات » خطيرة، بعدها ، لن تحدث .

***

تحية لذلك اليوم المجيد من أيام الامة العربية .. تحية لكل قائد ، ولكل مقاتل ، ولكل شهيد .. أسهم بارادته ، أو بشجاعته ، او بدمائه .. فى اضافة ذلك اليوم المجيد الى سجل هذه الامة .

السادات ..
أذكى من أن يفعلها

الذين يتابعون اعمال السيدة جيهـــان السادات فى مجالات الخير المتعددة ، لا يملكون الا ان يهتفوا لهـا ، ومن أعماق قلوبهم ، تحية واعجابا .

ومن المؤكد ان هؤلاء الذين يهتفون ، ومن أعمـــاق قلوبهم ، تحية لما تقدمه السيدة جيهـــان السادات فى مجالات الخير من عطاء ، قد تولاهم جزع شديد لما نشرته جريدة « السياسة » الكويتية ــ نقلا عن مراسلها فى القاهرة ــ من « أن العدة تعد هناك لاعلان السيدة جيهان نائبة لرئيس الجمهورية .. لدى التجديد الثانى للرئيس السادات فى رئاسة الجمهورية » !!

وهؤلاء الذين تولاهم الجزع لدى قراءتهم لهذا النبـأ الذى نشرته الصحيفة الكويتية ــ وهى صحيفة صـديقة لمصر .. وللرئيس السادات شخصيا ــ انمـا أصابهم ما أصابهم لانهم رأوا فى ذلك النبأ الذى لم تكذبه اجهزة الاعلام فى مصر ــ رأوا فيه انتصارا لاولئك الذين كانوا ــ ومايزالون ــ حريصين على تشويه ماتقدمه السـيدة « جيهان السادات » لمجالات الخير من عطاء ، وعلى تصويره بانه « ليس غاية فى ذاته .. وانما هو وسـيلة

---

(١) بسبب هذا المقال صودرت (الفجر) ، فى احـدى المرات التى صادرتها فيها « القاهرة » وأصدرت (السلطات القطرية) اوامرها الى (الكاتب) بمغادرة (الدوحة) خلال ثمان واربعين ساعة .. وكان ذلك بناء على رغبة شخصية ابداها الرئيس الراحل (انور السادات) !!

ى عايه » .. وان هذه الغاية انما هى الطموح الى أعلى منصب في الدولة » !!

واذا كان هذا سببا من أسباب ذلك الجـزع الذى تولى أولئك الذين كانوا ــ ومايزالون ــ يهتفون ، ومن أعماقهم ، لعطاء السيدة « جيهان السادات » فى مجالات الخير .. فانه ، وبالتأكيد ، ليس كل اسبابه .. ولعله ، أيضا ، ليس اهم أسبابه . وانما اهم اسباب هذا الجزع هو أن الذين جزعوا يعرفون « بحر السياسة » جيدا .. يعرفون انه « بحر » ترقد فى أعماقه كل « الاســـماك المتوحشة » .. ويعرفون أيضا أنه « بحر » كل شىء فيه جائز .. فليس ثمة قانون هناك ، ولا دستور ، ولا أخلاق، ولا ضوابط . فالكذب فى هذا « البحـــر » جائز .. والخداع جائز .. والتضليل جائز .. ولا شىء يهم . واذا كان بعض الرجال ، او كثير من الرجال .. تحملهـــم طبائعهم ، او تكرههم اقدارهم ، على الخوض فى هـــذا « البحر » ، وعلى التعامل مع « أسماكه المتوحشة » .. ومع أكاذيبه ، واضاليله ، ونفاقه .. فما أحرى النســاء أن يقفن بعيدا .. بعيدا جدا .. منه ، حتى لا تتحـــرك نحوهن « أسماكه المتوحشة » لتنهش لحومهن بغير رحمة، ولا شفقة .. اذ ليس أسهل ، بالنسبة لهذه « الاسماك المتوحشة » ــ وربما ولا الذ أيضا ــ من نهش لحوم النساء .. ولعل مايحدث ــ الان ــ لأنديرا غاندى فى الهند .. ومايحدث لازبيللا بيرون فى الارجنتين .. قاطعـــا فيه الدلالة على أنه لا اعتبار لاحد ــ مهما كبر قدره .. وتعاظم تاريخه ــ لدى هذه « الاسماك المتوحشة » .. لا اعتبار لنهرو ــ والد « أنديرا » .. وصانع استقلال الهند ــ

ولا اعتبار لجوان بيرون ـ زوج « ايزبللا » وصانع استقلال الارجنتين الحديثة ـ فكل شيء في « بحر السياسة » قابل للنسيان .. قابل للنسيان بعد لحظة ، وقابل للنسيان بعد حين ، فليس ثمة قانون في هذا « البحر » المتقلب .. والمخيف .. يمكن أن يحول بين « أسماكه المتوحشة » .. وبين نهش لحوم البشر .!!

واذا كانت هناك سيدة اقتربت من « بحر السياسة » ـ أقول « اقتربت » .. ولا أقول « غاصت ـ دون أن تنهش « أسماكه المتوحشة » لحمها ، فهذه السيدة هي « ملكة انجلترا » . ولم تتعفف « الاسماك المتوحشة » عن نهش لحم هذه السيدة ، ليس فقط لانها تعلم أنها ـ اي السيدة الملكة ـ لا تملك « الجرأة » على خوض « البحر » الذي ترقد في أعماقه .. وانما لانها ـ أولا .. وقبل كل شيء .. وبعد كل شيء ـ لا تملك « الحق » في أن تخوضه .. فهي ليست أكثر من مجرد « رمز » .. « صورة من تراث » .. « ماسة في تاج » .. يلذ للبريطانيين أن يظلوا محتفظين به .. ربما كتحفة من أغلى التحف .!!

***

ومن هنا أقول : انه اذا كان هناك من يحاول .. او من يحاولون .. اغراء السيدة « جيهان السادات » بالانصراف عن « بحيرة الخير » الصافية ، الرقراقة .. الى « بحر السياسة » الاسود اللون ، المتلاطم الموج ، المتوحش السمك ـ فانني لا أستطيع ان اثق بحسن نواياهم نحوها ، ولا بأنهم يريدون بها أولها خيرا كثيرا .. أو قليلا .. ليس ذلك فقط ، بل انني أستطيع القول انهم لا ينطوون على

شيء يحسن النية نحـو الرئيس السادات نفسه .. ولا يريدون به ، أو له ، خيرا كثيرا .. او قليلا .

على انني واثق ــ على الرغم ن ان احدا في مصر لم يكذب مانشرته صحيفة « السياسة » ــ من أن الرئيس السادات لا يمكن ان يفعلها ..

لماذا .. ؟

● أولا : لانه ، فيما اعتقد ، أشد ذكاء من أن يستدرج الى محظور خطير كهذا المحظور ..

● وثانيا : لانه رجل حكم عليه قدره بان يخوض ــ ومنذ شبابه الباكر ــ في « بحر السياسة » .. واتيح له أن يعرف الكثير عن أسرار هذا « البحر » ، وعن عواصفه .. وعن « الاسماك المتوحشة » التي ترقد في أعماقه . ولان السادات قد خاض ، ومنذ شبابه الباكر ، في « بحر السياسة » فانه لن يستطيع أن ينسى مالحق برجل كمصطفى النحاس ــ زعيم أكبر اغلبية شعبية بعد سعد زغلول ــ بسبب سماحه لزوجتـه بأن تقترب ، بصورة . أو بأخرى ، من « بحر السياسة » فلقـد نهشت . « الاسماك المتوحشة » لحم الرجل .. ولحم زوجته معه .. والصقت به ، وبها ، اشياء لا يعلم الا الله وحده مقدار مافيها من حقيقة .. ولم يتردد أصـدق أصدقاء « مصطفى النحاس » في النيل منه .. مـن خلال زوجته ، ومن خلال اقترابها من « بحر السياسة » .. واخذ تاريخ الرجل ــ ومامن شك في انه رجل ذو تاريخ ــ يتساقط ، منذ تلك اللحظة ، صفحة .. بعـد

صفحة .. حتى نسي الناس ، او كادوا ، ان الرجل كان له تاريخ .!!

انور السادات ، في تصوري ، لا يمكن ان ينسى شيئا كهذا . لا يمكن أن ينساه كرجل غرق ، حتى الاذنين ، في « بحر السياسة » . كما انه لا يمكن ان ينساه كرجل جاء من اعماق القرية المصرية ، حيث يقتل الناس هناك ، وبلا ادنى تردد ، كل من تسول له نفسه أن ينال من « جماعتهم » بكلمة سوء .

وفي وقت ما .. لم يغضب الرئيس السادات من طلاب الجامعات حين قالوا فيه — شخصيا — كل ما أرادوا أن يقولوا . لكن المؤكد أن غضبا ، بغير حدود ، قد تملكه ، ولم يستطع ان يخلص نفسه منه بسهولة .. حين علم ان هؤلاء الطلاب قد تجاوزوه الى قرينته .

انور السادات يعلم — من خلال ما أضافت اليه الحياة من تجارب — انه ليس ثمة شيء يمكن أن يحمي هـذه السيدة الفاضلة ، اذا هي انتقلت من « بحيرة الخير » حيث كل شيء صاف ، ورقراق ، ومضيء للنفس بالحب ، وبالوفاء ، وبالامل — الى « بحر السياسة » حيث لا شيء هناك الا العواصف ، والامواج ، و .. و « الاسماك المتوحشة » .. ومن هنا ، فانني اكاد اقطع بانه لن يفعلها لا لشيء .. الا انه قادم من اعماق القرية المصرية . وأيضا لانه اشد ذكاء من ان يفعلها .. مهما حاول الاخرون الذين لا اشك لحظة في انهم لا يريدون به ، أو له ، خيرا كثيرا .. أو قليلا .. اغراءه بأن يفعلها .

قدر مصر ..!!

فى القاهرة ، قال « ياسر عرفات » « أنه لايستطيع ان يتصور أنه يمكن أن يكون هنـــاك حل لازمة آلشرق الاوسط ، فى غياب مصر ، كما أنه لا يستطيع أن يتصور أنه يمكن أن يكون هناك حل لمشـــكلات مصر ، بدون العرب .

وماقاله « ياسر عرفات » انما هو حقيقة مؤكدة تأكد شروق الشمس من المشرق . بيد أن هناك حقيقة أخرى لها نفس آلقدر من التأكيد ، نستطيع أن نضيفها الى تلك التى اعلنها ــ وهى أن مصر ــ حتى لو استطاعت أن تحل مشكلاتها بعيدا عن العرب ــ فانها لا ترضى .. ولا تستطيع .. بل ولا تملك آن تتخلى عن انتمائها العربى . فلقــد كانت مصر منتمية الى العرب ، وملتحمة بهم ــ باعتبارها جزءا من كل ــ قبل أن يكون لها اية مشكلات . بل لعل ماتعانيه مصر ، الأن ، من مشكلات صارت أكبر من قدراتها على آلحل .. لم يكن ليصيبها شيء منها ، لو لم تخض بوصفها الدرع ، والطليعة ــ اربع حروب ضارية دفعت فيها مادفعت ، واصابها منها ما اصابها ، بسبب عروبتها التى قلنا أنها لا ترضى ، ولا تستطيع ، بل ولا تملك أن تتخلى عنها .

ان مصر هى الشقيق الاكبر للعرب جميعا . ولا يستطيع الشقيق الاكبر ولا هو يملك ، أن يتخلى عن أشقائه مهما وقع فى حقه من بعضهم .. أو منهم جميعا . انه لايستطيع

ذلك ، ولا يملكه ، لسببين :

● أولا — لانه الشقيق الاكبر .. ولانه الاكبر — فلابد من أن يكون هو الاكرم .. والاكثر تسامحا فى مواجهة كل ماقد يصيبه من أشقائه الآخرين .. أو بسببهم .

● ثانيا — ان الشقيق الاكبر ، مهما بلغ من قوة ، فانه لا يستطيع أن يخوض فى بحر الحياة المتلاطم الامواج .. والمشحون ، دوما ، بعوامل المد والجزر .. بعيدا عن أشقائه . انه — بهم — قوة .. وبدونهم ضعف . ولقد يضحى الشقيق الاكبر من اجل أشقائه الآخرين .. ولقد يحتمل منهم ، وفى سبيلهم ، مالا طاقة له على احتماله لكنه — فى كل الحالات — لا يملك أن يضج .. ولا أن يتململ .. فذلك هو قدره .. وتلك هى ضريبة موقعه .. وعليه أن يدفع هذه الضريبة بكل الحب .. وايضا بكل الرضى . وهذا ، فيما نعتقد ، هو ماتفعله مصر اليوم .. وماسوف تظل تفعله غدا .. وبعد غد .. من موقع القوة ، لا من موقع الضعف .. من موقع الايمان ، لا من موقع المسايرة ، من موقع المسئولية لا من موقع الاتجار بالشعارات .. و « طق الحنك » !!

مصر زعامة ..!!

« مصر .. « زعامة » .. ولن ينتقص من قـدرها « كزعامة » ان يتطاول عليها المتطاولون . ولان مصـر « زعامة » ، فانه يتحتم أن يكون كل مايصدر عنها ـ عن كتابها على وجه الخصوص ـ نموذجا في « موضوعية الحوار » . وليس من « موضوعية الحوار » في شيء ، ان يصف زميل عزيز من الكتاب وزير خارجية سوريا بأنه « الخدام » .!! كذلك ليس من « موضوعية الحوار » أن ينزلق زميل آخر ، فيتهم الاخوة الفلسطينيين بما لا يجوز لعربى ـ تحت أية ظروف ـ أن يتهم به عربيا آخر ..

وما صدر عن الزميلين العزيزين ، أدنى الى أن يكون « سبا » .. وما كان « السب » ، ولن يكون ، الا وسيلة العاجزين . والكاتبان ـ كما أعرفهما ـ ليسا بعاجزين . بل هما قادران ـ وكلاهما يحمل ليسانس الحقوق ـ على مقارعة الحجة بالحجة ، والدليل بما يدحضه . لكنهما سمحا لنفسيهما بأن يستسلما « للانفعال » ، فوقعا فيما لايجوز لمثليهما ان يقع فيه .. وبما أضحى محسوبا على مصر نفسها ، اكثر مما هو محسوبا على أى منهما .

صحيح أن وزير خارجية سوريا قد تجاوز ..وصحيح أيضا أن بعض قادة الثورة الفلسطينية قد ارتضوا من أنفسهم أن يتهموا مصر بالخيـانة .. الا ان ذلك كله لا ينهض مبررا لان يتنكب الزملاء الكتاب طريق«موضوعية

الحوار » . فليست هذه هي المرة الاولى – ولن تكون الاخيرة – التي تتهم فيها مصر بما اتهمها به السيد عبد الحليم خدام ، كما انها ليست المرة الاولى – ولن تكون الاخيرة – التي يتهمها فيها بعض قادة الثورة الفلسطينية بالخيانة. وليس ببعيد ذلك اليوم الذى اتهموا فيه « عبد الناصر » نفسه ، بنفس هذه التهمة الخطيرة والشائنة ، لانه قبل « مبادرة روجرز » . ثم عادوا فاستغفروا الرجل عما قالوه فى حقه .. بعدما عرفوا « السر » وراء قبوله لهذه المبادرة .

وصحيح أن كل ذلك خطير ، ومستفز ، وجدير بأن يذهب بصبر الصابرين .. آلا أن مصر – كزعامة .. وممثلة ، على وجه الخصوص ، فى أقلام كتابها – مطلوب منها أن تعلو بنفسها فوق ذلك كله .. فلا تجاريه ، ولا تتوقف عنده ، ولا تسمح بأن تجرجر اليه .. بعيداً عن « موضوعية الجوار » . فذلك هو قدر « الزعامة » .. وعلى « الزعامة » أن تتحمل – وبكل الصبر – تبعات قدرها ، مهما ظنت بها الظنون .

اننا شركاء معركة واحدة .. وشركاء مصير واحد .. وليس من حق شركاء المعركة الواحدة ، والمصير الواحد ، ان يلوث بعضهم بعضا ، ولا أن يحقر بعضهم بعضا ، ولا ان يدمر بعضهم بعضا .. واذا ماتجاوز أحدهم – والتجاوز وارد فى كل وقت – فان على الاكبر ان يتحمل .. وان يحتمل .. والاكبر هنا هو « مصر » .. وذلك – واكرر – هو قدرها .

ناصر .. ليس نبيا !!

لم يقل احد ان « عبد الناصر » كان نبيا من الإنبياء. كذلك لم يقل احد ان الرجل كان بشراً فوق الاخطاء ، او اكبر من الاخطاء . . وانما كان « عبد الناصر » بشرا ككل البشر . يخطىء ، ويصيب . . ويوفق في أمور ، ويجانبه التوفيق في أمور أخرى . ولا أعتقد ان الذين يحاولون « تأليه » عبد الناصر ، أو « تقديسه » يحملون له من الحب اكثر من اولئك الذين يحاولون تشويه صورته وتشويه سيرته ، وتحميله مسئولية كل ماارتكبه الاخرون في عهده ، من خطايا . . أو من اخطاء !.

الرجل اخطأ . . هذا صحيح . .

والرجل مسئول عن كثير مما وقع ، في عهده ، من اخطاء . . هذا أيضا صحيح . ولكن اخطاء الرجل . . ومسئوليته عن هذه الاخطاء . . لا يمكن أن تنهض مبررا لهذه الحملة الشرسة التي شنها البعض ضد شخصه ، وضد عهده كله ، وضد تاريخه كله ، الى حد أن مناضلا وطنيا كالاستاذ أحمد حسين زعيم « جماعة مصر الفتاة » التي كان « عبد الناصر » ، في الثلاثينيات ، واحداً من جنودها . . حاول في مقال كتبه ، ذات يوم ، في صحيفة الاخبار ــ أن يجرده حتى من فضل قيامه بتاسيس « جماعة الضباط الاحرار » !! ولا اظن أن هناك تجن على تاريخ الرجل أبشع من هذا التجنى .

لا . . ليس الى هذا الحد يجوز أن تصل العداوة

بالناس . ومسار مثل هذه السهام الطائشة لابد وأن يرتد بها . فى النهاية ، الى صدور اصحابها .

لماذا ؟.

لانها لم تنطلق ، اساسا ، من منطق تقييم موضوعى ، ودقيق ، وامين لحقبه من عمر مصر .. بل ومن عمر الامة العربية كلها .. استمرت ثماني عشرة سنة .. سقطت ، خلالها ، عهود وقامت عهود .. وانزاح خلالها ، والى الابد ، حكام ، وحل محلهم آخرون .. وكان للرجل فى هذا كله — بصورة أو بأخرى — أثر او آثار .

لقد انطلق المهاجمون ، وبكل مالديهم من « شراسة » ، يهاجمون عبد الناصر .. كذلك انطلق المدافعون ، وبكل مالديهم من « حماسة » ، يدافعون عنه . فكانت النتيجة أن ضاعت « الحقيقة » بين شراسة هؤلاء وحماسة اولئك وبين هذه وتلك ، لم يعد أحد يستطيع أن يعرف : أين الحقيقة .!!

ان « عبد الناصر » زعامة .. لاحد يجرؤ على انكار هذا . و « عبد الناصر » تاريخ .. لا أحد أيضا يجرؤ على انكار هذا . ولقد وقع « عبد الناصر » فى الزعامة .. والتاريخ .. فى أخطاء قليلة ، أو كثيرة .. جسيمة ، أو صغيرة .. ولكن هذا كله شيء ، وان يقال عن الرجل — بالتجنى .. وبالافتراء — انه « لص » .. فذلك شيء آخر .. شيء لاعلاقة له — مطلقا — بالتاريخ ولا بالتقييم ، ولا حتى بفن « الاثارة الصحفية » . لان «الاثارة الصحفية» كما افهمها — مع أني لست من مدرستها — لا تنطلق ، اصلا ، من فراغ .. ولا تقوم على غير أساس .!!

بدلة عبد الناصر ..!!

« جمال عبد الناصر .. بكل أمجاده ، وايضا بكل ماوقع فيه من اخطاء ، شخصية غير قابلة للتكرار . انه واحد من « فلتات التاريخ » التى قد تقع مرة كل مائة سنة ، والتى قد لاتقع على الاطلاق . وربما لو كان « عبد الناصر » ــ بكل مميزاته الشخصية ، وبكل مقومات الزعامة التى ولدت له ، ومعه ــ قد وجد فى بلد آخر غير مصر .. لما صار له كل ذلك التأثير الذى صار له ، ولما أصبحت له كل تلك المكانة العربية والعالمية التى أصبحت له . فبغض النظر عن كل المميزات الشخصية التى كانت لعبد الناصر .. بغض النظر أيضا عن كل مقومات الزعامة التى ولدت له ومعه ، الا أن المؤكد ان مصر بماضيها الحضارى والتاريخى ، وبموقعها الاستراتيجى ، وبكثافتها السكانية ، قد عكست ذلك كله على زعامته ، وأضفت عليها كل ماكان لها من ثقل على الصعيدين العربى والعالمى .

تلك هى الحقيقة المؤكدة ، والتى ماكان يجب أن تغيب، مطلقا ، عن أذهان البعض ممن يحلمون أو يتخيلون ، انهم قادرون على أن يرتدوا « بدلة عبد الناصر » ويمتشقوا سلاحه .. ويلعبوا دوره !! .

انه تطلع صعب .. بل هو تطلع مستحيل .. لانه على فرض أن « الفلتة التاريخية » ، الممثلة فى عبد الناصر قد تكررت فيهم ، وبمثل هذه السرعة .. فان مصر :

التاريخ .. والموقع .. والكثافة السكانية ، ستظل تنقصهم .. وسيظلون هم مفتقرين ، أشد الافتقار .. وكل الافتقار ، الى مايمنحهم الوزن والثقل ، سواء على مستوى المنطقة .. او على مستوى العالم . ولو أن هؤلاء الذين يمارسون « التطلع المستحيل » الى ارتداء « بدلة عبد الناصر » ، وامتشاق سلاحه ، ولعب دوره ــ آمنوا بأن دورهم الطبيعى .. والصحيح .. هو أن يغلقوا على انفسهم أبواب بلادهم .. ويبقوا هم وراء هذه الابواب ، يصنعون .. ويزرعون .. ويعملون .. ويجددون انسان بلادهم .. ويفعلون ــ فى كلمة واحدة ــ كل ما فعلته الصين بنفسها لنفسها .. فلربما صار لهم شأن غير شأنهم .. ولربما صارت لهم مكانة غير مكانتهم ، ولربما أستطاعوا ــ نتيجة لذلك كله ــ ان يجدوا لهم مكانا فى التاريخ .. بجوار « عبد الناصر » .

الزلزال ..!!

اعترفت « جولدا مائير » ....

اعترفت في مذكراتها : « ان مامنيت به اسرائيل من هزيمة ، فى حرب أكتوبر ،لايمكن أن تمحوه الايام .. ولسوف اعيش بحسرتى البقية الباقية من أيامى » .

ولم يكن سهلا أن تعترف « جولدا مائير » بهذه الحقيقة المرة . لولا انها ـ اى الحقيقة ـ أقوى منها .. ومن كل الصلف والغرور اللذين تتصف بهمـــا الصهيونية ... و « مائير » واحدة من غلاتها . !

وقالت « مائير » ، فى مذكراتها ، « انها نادمة لانها لم تستجبُ لتحذيرات قلبها آلتى حدثها بأن العرب سيقومون بالهجوم صباح ٥ أكتوبر » .. واذا صح ماقالته « مائير » عن تحذيرات قلبها .. فليس من شك فى أن الله قد أعمى « هذا القلب » لكى يحدث ماحدث .. فليس معقولا أن يتخلى الله عن عباده المؤمنين الى مالا نهاية . انه قد يتخلى عنهم « لبعض الوقت » لكى يؤدبهم .. ولكى لا تأخذهم الخيلاء ولا الغرور .. كما حدث مع المسلمين الاوائل فى « غزوة حنين » ، فاذا ماعادوا الى الله .. وعــرفوا اخطاءهم .. واقروا بخطاياهم .. فانه لابد وأن ينصرهم على اعدائهم .. خاصة اذا كان هؤلاء الاعداء من أولئك الذين قتلوا الانبياء ، وحنثوا بالعهد ، ولا وعد لهم ولا كلمة . !

ولقد وصفت « مائير » حرب أكتوبر بأنها كانت « ماساة حقيقية بالنسبة لاسرائيل » . وكان لابد ان تكون كذلك . فحين يغرق شعب نفسه فى الصلف ، ويستسلم بالكامل لغرور القوة التى يتصورها لن تهزم .. فان أية ضربة تصيبه ، انما هى « ماساة » بالنسبة له . فما البال اذا كانت هذه الضربة فى حجم « ضربة اكتوبر » التى خلخلت اسرائيل من ألداخل .. وارغمت قادتها على أن يطلقوا عليها اسم « الزلزال » ؟!.

لقد اعترفت « مائير » .. ولم يكن سهلا أن تعترف ، ولسوف تتوالى « الاعترافات » .. وليس المهم أن يعترفوا ولكن المهم أن يعوا الدرس ، ويتفهموا عبره .. ويتفهموا — قبل كل شىء — « ان الجريمة لا تفيد » . وليس هناك — فى الماضى ، ولا فى الحاضر ، وما اظن أنه سوف يكون فى المستقبل — جرائم اقبح .. ولا ابشع .. من جرائم الصهيونية التى هى نفسها جرائم اسرائيل !

عن :
العرب .. وماسيهم !!

لم نكن .. ولن نكون ..!!

لم نكن ـ نحن العرب ـ ولن نكون ، فى مأمن من تحرشات « الكبار » بنا .. ولم نكن ـ نحن العرب ـ ولن نكون ، فى مأمن من مخططاتهم ، وتدبيراتهم ، ومؤامراتهم اذا تعذر ضربنا من الداخل ، فضربنا من الخارج ، ممكن .. ولا شيء . في عرف « الكبار » صعب .. ولا شيء ، فى عرفهم ، مستحيل .!!

ففي سنة ٥٦ ، كان العدوان الثلاثى على مصر ، وفى سنة ٦٧ ، تكرر نفس العدوان .. ولكن ، بصورة أخرى!! وفى سنة ٥٨ ، كانت أمريكا جاهزة بأسطولها السادس للتدخل في لبنان .. تماما مثلما هى جاهزة ، اليوم ، للتدخل بنفس الاسطول .. فى نفس البلد !! وكأن الزمن لم يمض الى الامام مايقرب من عشرين سنة .. ذهب خلالها رجال ، وجاء رجال .. ولكن الهدف الشرير بقى ثابتا ، لم يصبه تغيير .. ولا تبديل !!

ولقد طرات علينا ـ نحن العرب ـ خلال تلك الحقبة من الزمن ، متغيرات كثيرة .. تكاثرت اعدادنا ، وتزايدت قوتنا ، وتضخمت ثرواتنا ، وظهر للعالم كله أن لنا أنيابا نستطيع ، وقت اللزوم ، أن نستعملها .

ولكن هذه المتغيرات جميعها ، كانت ـ لسوء الحظ ـ علينا ، وليست لنا . لماذا .. ؟!

لانها أثارت مخاوف أولئك « الكبار » ، منا ، وحركت

أطماعهم بنا . فالعرب ، باعدادهم الكثيرة ، خطر كبير . والعرب ــ اقوياء ــ بالاضافة الى هذا ــ خطر اكبر . والعرب ــ اغنياء ــ بالاضافة الى هذا وذاك ، خطر أكبر .. وأكبر . ومن هنا .. اتسعت دائرة المؤامــرات ، وتزايدت ، وتزايدت حدتها .. وضراوتها ، واصــــبح تمزيق العرب .. وتفتيت قواهم بالضرب من الداخل ، أو بالضرب من الخارج ، هدفا ــ لدى الكبار ــ يتقــدم كل الاهداف ، ويعلو على كل الاهداف .. وما يحدث فى لبنان ، حتى هذه الساعة ، ليس سوى حلقــــة فى السلسلة ، فاذا مافشلت هــــذه « الحلقة » .. فان « السلسلة » سيظل بها حلقات كثيرة .. كثيرة !!

فان نحن أفلتنا ، اليوم ، من ذلك « الفــخ » الذى نصبوه لنا فى لبنان ، فلا شىء يمنع من اعادة نصبه مرة ثانية ، وثالثة .. ربما فى دمشق ، وربما فى بغداد ، وربما فى القاهرة ، وربما فى الخليج العربى ... فأرض العرب ، جميعها ، صالحة ــ من وجهة نظــر أولئك « الكبار » ــ لنصب « الفخاخ » بها فى أية لحظة .. وفى كل لحظة .!!

ومع أننا ــ نحن العرب ــ لسنا اغبياء . ومع أننا ، على العكس من هذا ، مشهود لنا بالفطنة ، وبالذكاء .. الا اننا ــ وعلى الرغم من كل ذكائنا ، ومن كل فطنتنا ــ جاهزون ، دائما ، لمساعدة المتآمرين على تحقيق كل مايريدونه لنا ، وكل مايريدونه بنا !!

فهل آن الاوان لنا ــ نحن العرب ــ لكى نصحوا ؟ هل آن الأوان لكى نتفهم حقيقة المؤامــرة ، وطبيعة

المؤامرة واهداف المؤامرة !

هل آن الاوان لكي نفهم أن « لبنان » لايمكن أن يكون هو المطلوب . انما المطلوب انما هو نحن .. نحن جميعا .. من اقصى الشرق الى اقصى الغرب .. من الخليج الى المحيط ! !!

هل آن الاوان لكي نفهم هذا .. ام اننا سنظل ، العمر كله ، هكذا .. لا نكاد نخرج من « فخ » .. الا لكى نسقط فى « فخ جديد » ؟!

ياويل دمشق ..!!

برغم مضى اكثر من ثلاثين سنة على انتهاء الحرب العالمية الثانية .. وبرغم اختلاف الدين ، واللغة ، والجنس ، والعقائد بين رفقاء السلاح فى تلك الحرب . فان روسيا ـ حتى الآن ـ لم تحارب أمريكا .. ولا أمريكا حاربت روسيا .. وكذلك فرنسا لم تحارب انجلترا .. والعكس صحيح .. اما رفقاء السلاح فى « حرب أكتوبر » فانهم لم يستطيعوا الصبر على انفسهم أكثر من سنوات ثلاث !! بعدها .. شهروا السلاح فى وجه بعضهم البعض ، وحركوا المدافع ضد بعضهم البعض ، وأسالوا الدماء ـ بحوراً ـ من أجساد بعضهم البعض !!

لقد رفضت أذناى ـ ولفترة طويلة ـ أن تصدق المذيع وهو يستهل نشرة الاخبار بخبر يصعب تصديقه .. بل يستحيل تصديقه . وكان الخبر يقول : « لاتزال قوات التحالف الوطنى اللبنانى الفلسطينى ، مشتبكة فى قتال ضار مع القوات السورية الزاحفة على لبنان » !!

ولكن مالم أرد تصديقه ، كان « حقيقة » .. أليمة ؛ نعم .. محطمة للنفس ، وللروح ، وللمشاعر .. نعم ، ولكنها « حقيقة » .. ولا سبيل ، مطلقا ، لتكذيب السمع ازاءها . !!

ولكن ، كيف .. ؟!

كيف رضيت « دمشق الاسد » لنفسها ، وعلى نفسها ، أن تفعل بالمقاومة الفلسطينية مالم تنجح « تل أبيب

جولدامائير .. وموشي ديان » أن تفعله بها ؟ ولحساب من .. ولمصلحة من .. تفعل « دمشق الاسد » كل هذا الذى تفعله ؟!!

الحساب لبنان ؟..

أبدا .

الحساب القضية العربية كلها ؟..

مستحيل .

الحساب سوريا نفسها ؟..

مستحيل كذلك ..

اذن .. لحساب من .. ومن الذى يمكن أن يستفيد من ذبح المقاومة .. وتدمير قواها .. وابادة رجالها ؟!

صاحب المصلحة معروف .. والمستفيد معروف .. واذا لم تكن « دمشق الاسد » ضالعة ـ بصورة أو بأخرى ـ مع هذا المستفيد ، فهى ـ في أقل القليل ـ قد رضيت لنفسها وعلى نفسها ، أن تقوم بدور « مخلب القط » فى هذه المأساة العربية التي لا تشبهها ماساة غير ماساة « أيلول الاسود » .

وياويل « دمشق الاسد » مما سوف يكتبه التاريخ عنها .

لعبة الأمم ..!!

عندما كتب « مايلز كوبلاند » ، فى سنة ١٩٦٧ ، كتابه الشهير جدا .. والخطير جدا : « لعبة الامم » .. كان « اللاعب » ، في ذلك الوقت ، واحدا .. وكان « الملعب » أيضا واحدا .. كان « الملعب » ... هو « الساحة » التى تقع عليها — طولا وعرضا — « أمم الشرق الاوسط » .. وكان « اللاعب » هو أمريكا !! .
ومنذ اليوم الذى كتب فيه « كوبلاند » كتابه ذاك ، اتسعت دائرة « اللعبة » .. وتكاثر عدد « الملاعب » .. وتزايد — وبصورة مخيفة — عدد « اللاعبين » . فحيثما وجهت نظرك اليوم .. فانك ، حتما ، سوف ترى وتحس ، أن هناك « لعبة » .. وان هناك « لاعبين » .. وان الامر لم يعد مقصورا على أمريكا .. تلعب وحدها ، وتعبث وحدها وتفسد وحدها !! وانما كل « الامم » — الكبرى منها .. والصغرى على السواء — أصبحت موجـودة فى قلب « اللعبة » ففي انجولا — على سبيل المثال — كانت أمريكا موجودة ، وكان الاتحاد السوفيتى موجودا . وكانت كوبا — أيضا — موجودة !! وفي لبنان — أيضا على سبيل المثال — كانت أمريكا وماتزال ، موجودة .. وكان الاتحاد السوفيتى ، ومايزال ، موجودا ، وكانت فرنسا ، وماتزال ، موجودة ، وكانت سوريا ، وماتزال ، موجودة . وحتى ليبيا كانت — أيضا — وماتزال موجودة !!

وفي الخليج العربى .. يكاد جميع من ذكرت ، ومن

لم اذكر ، ان يكونوا موجودين . « فالملعب » هنا ، واسع جدا .. وغني جدا .. ولهذا السبب .. وذلك . لابد أن تكون « اللعبة » لذيذة جدا .. ومغرية جدا !!

المهم .. والمحير .. والمثير ، حقيقة ، هو أن « الامم » التي يتخذها « اللاعبون » ـ الكبار والصغار ـ مسرحا .. يمارسون من فوق خشبته ، لعبتهم المثيرة .. والخطيرة .. لا تريد أن تشعر ، ولا أن تحس بما يجري لها ، ولا بما يجري معها .. وكأنها ـ جميعـــا ـ قـــد نومت مغناطيسيا .. او كأن « اللاعبين » ـ صغارا .. وكبارا ـ يحقنونها بنوع خاص من « المخدر » يسلبها الاحساس والسمع والبصر !!.

والى أن تحس هذه الامم .. وتسمع .. وترى .. فان « اللعبة » الخطرة ستظل مستمرة .. وسيظـــل « اللاعبون » يتزايدون . وسيظل عدد « الملاعب » يتكاثر .. وبدلا من أن يكون في « المكتبة العالمية » .. كتاب واحد .. اسمه : « لعبة الامم » .. ســوف يصبح في هذه المكتبة عشرات الكتب ، أن لم يكن مئات الكتب التي سوف تحمل جميعها اسما واحدا هو : « لعبة الامم ».. التي لا تريد أن تحس ، ولا أن ترى ، ولا ان تسمع !!.

لبنان .. فقد عقله !!

لو أن اسرائيل شنت على لبنان حربا كاملة شاملة ، لما كان ممكنا أن تحدث به من الخراب ومن الدمار ، اكثر مما احدثه به أبناؤه .؛! فلقد اكلت النيران « بيروت » عن آخرها .. واصبحت المدينة التى كانت واحدة من اكثر عواصم العالم العربى تألقا ، ونشاطا ، وازدهارا ـ اصبحت خرابا ، واطلالا ، ومزيجا مروعا من النار ، والدم ،، والدمار !.

ولقد أوضحت المأساة المتفجرة بالدماء ، وبأشــلاء الضحايا ، والتى اتخذت من كل ركن فى لبنان مسرحا تتحرك فوقه بكل العنف ، والجنون ، واللامبـالاة ـ اوضحت أن الزعماء المسلمين قد فقدوا ـ وبالكامل ـ سيطرتهم على « الشارع المسلم » كما أوضحت أن الزعماء المسيحيين قد فقدوا ـ وبالكامل ايضا ـ سيطرتهم على « الشارع المسيحى » .. وأنها لكارثة فادحة أن يـكون هؤلاء الزعماء .. وأولئك .. قد فقدوا سيطرتهم على شوارعهم . وهى كارثة أشد فداحة أن تكون المأساة التى تتفجر بالدماء ، وبأشلاء الضحايا ، والتى تتحرك كالافعى فى كل ركن من أركان لبنــان ، تتم بتوجيههــم .. أو برضائهم .. او حتى بسكوتهم الذى لايختلف فى شىء ، عن رضائهم !!.

ومصيبة المصائب فيما جرى فى لبنان ، أن أحدا لايكاد يعرف ماذا يريد الفرقاء المتقاتلون بالضـبط . فمـن

المستحيل أن يتصور احد أن المســـلمين يريدون لبنان خالصا لهم . كذلك من المستحيل أن يتصور احـد ان أن المسيحيين يريدون لبنان خالصا لهم ». اذ أن لبنان لن يخلص لاى من الفريقين .. حتى ولو ظلا ، الى آخر العمر يتقاتلان .

لقد كان لبنان ـ ويتحتم أن يظل ـ نموذجا فـريدا لتعايش الطوائف المتباينة من ابنائه .. وهو لم يتألق ، ولم يزدهر ، الا نتيجة لهذا التعايش .. وبسببه .. وأنه للجنون بعينه أن تظن طائفة من طوائف لبنان أنهـا قادرة على ابادة الاخرى . فذلك مستحيل استحالة تحرك جبال لبنان من مواضعها !.

فهل بقى عند الشارع فى لبنان ، بقية من عقل تجعله يدرك هذه الحقيقة ؟.

وهل بقيت عند زعماء الشارع فى لبنان بقية من قوة، أو من سيطرة ، أو من نفوذ ، تجعلهم يستطيعون اقناع شوارعهم بهذه الحقيقة ؟.

الا ليتهم يستطيعون .. قبل أن يتسرب من أيديهم كل شيء ، ولا يبقى لهم من لبنان المتألق ، المزدهر ، الا مجرد رماد تذروه الرياح !!

السم .. فى الدسم !!

يبدو أن محاولة شق الصف العربى ، ستظل هـدفا اساسيا لعديد من الصحف الغربية عامة ، والانجليزية على وجه الخصوص . أنها لم تسأم من ذلك ، ولاتمل ، ولا يتسرب اليها اليأس . ومن هنا ــ وتمشيا مع خطتها ، وكمحاولة لمتابعة اهدافها ــ لم تكد تتأكد من أن «الفيصل» . . العظيم . . قد غاب عن مسرح الاحداث، حتى راحت تمشى بالوقيعة ــ وعلى طريقة : « السم فى الدسم » ــ بين الاخ واخيه . فمضت تصف الأمير فهد . . ولى عهد السعودية الجديد ... بأنه « الرجل القوى » فى هيئة السلطة الجديدة . وبينما أخذت هذه الصحف تردد هذه النغمة ــ صراحة ــ بالنسبة للامير فهد . . فانها لم تتردد فى أن « تلمح » الى أن العاهل السعودى الجديد . . الملك خالد . . ليس له من « القوة » لولى عهده : الامير فهد . . وكأنما القضية الساخنة التى فرضت نفسها على المسرح العالمى ــ بعد غياب «الفيصل» ــ هى قضية القوة . . والضعف ، وليست قضية سياسة السعودية ــ بعد « الفيصل » ــ بتروليا . . وعربيا . . ودوليا .

ومع أن هؤلاء الذى يحاولون ان يمشوا بالوقيعة بين الاخ وأخيه ، عن طريق المفاضلة والمقارنة ، يعلمون جيدا أن قوة العربية السعودية لم تتحقق ، أساسا ، الا من خلال تلاحم الاسرة الحاكمة فيها . . ومع انهم يدركون

ان كل فرد في هذه الاسرة المتلاحمة ، والقوية بتلاحمها ، يدرك تماما السر الحقيقى وراء قوة أسرته .. الا انهم ـ مع ذلك ـ يحاولون .. وما المانع ؟! فقد تجدى المحاولة .. وينشق الصف .. وتتبدد القوة !.

لكن المؤكد ان المحاولة لن تجدى .. فلسوف يظل «الفيصل» .. العظيم ـ حتى بعد غيابه ـ يسحب ظلاله على أخوته . يسحبها عليهم قوة ، ويسحبها عليهم ترابطا ويسحبها عليهم تلاحما لن ينفذ من خلاله دس أولئك الدساسين من غربان « الامبراطورية » التى غابت عنها الشمس .. لكى لا تعود الى شروق .

من أجل حفنة أصوات !!

من اجل حفنة أصوات .. بدأ « جيمى كـــارتر » المرشح الديمقراطي لرئاسة الولايات المتحدة الامريكية ، رحلة تقديم « القرابين » الى يهود أمريكا بهدف الفـــوز باصواتهم .؟!

وليس ثمة « قربان » يستطيع اى مرشح امريـــكي تقديمه لليهود ، احلى .. ولا اشهى .. من الدول العربية ومن هنا ، اختار « كارتر » ان يبدأ بها .. فقال فى واحد من خطاباته الانتخابية « ان على امريكا أن تفرض حصارا اقتصاديا ، وصناعيا على الدول العربية ، ان هى عادت مرة اخرى الى اشهار سلاح البترول فى وجه العــالم الغربى » !!

ونسى « كارتر » ـ كما نسى كثيرون غيره من قبل .. وكما سوف ينسى كثيرون غيره من بعد ـ ان الدول العربية لم تشهر سلاح البترول فى وجه العالم الغربى الا مــن قبيل « الدفاع عن النفس » .. كذلك نسى « كارتر » ـ كما نسى كثيرون غيره من قبل . وكما سوف ينسى كثيرون غيره من بعد ـ ان « الدفاع عن النفس » انما هو حــق مقدس من حقوق الانسان .. وان هذا « الحق المقدس » لم يتقرر للانسان بمقتضى قانون وضعى .. وانما هــو حق مقرر بمقتضى قانون الهى . ففى شريعتنا السمحاء ـ وعلى الرغم من كل سماحتها ـ ان « العين بالعين .. والسن بالسن » .. وان « لكم فى القصاص حياة » .

وإذن .. فنحن حين شهرنا سلاح البترول في وجه العالم الغربي ، لم نكن نحاول أن نقتل احداً .. فقط ، كنا نقتص لانفسنا من قاتلينا .. لم نكن فريقاً من « الكاوبوي » تقتل بمناسبة ، وبغير مناسبة ، كل من نلقاه على الطريق : اما عن خبل .. واما عن غرور مجنون بقانون القوة .. واما عن تجرد مشين من جميع الخصائص التي فرق بها الله بين الانسان والحيوان !!

وليقل « كارتر » كل مايريد أن يقول . فلم يعد لمثل هذه التهديدات أن تخيفنا . فالذين يدفعون القتل عن انفسهم ، لن تعنيهم مثل هذه التهديدات في كثير او قليل . وانما الذي يعنيهم .. والذي سوف يظل يعنيهم .. هو : أن يعيشوا بكرامة .. او ان يموتوا بشرف .

يالفرحة اسرائيل !!

الذى يحدث الآن ، فى الساحة العربية ، شىء أقل مايقال فيه انه يمزق القلب .. ولا يمكن أن يكون هناك تعليق على ذلك الذى يحدث ، أدق من القول : يالفرحة اسرائيل ..!!

نعم .. يالفرحة اسرائيل . !! فأكبر اليقين أنها ماتسوف .. وما تنتظر .. وما تماطل ، الا انتظارا لهذا الذى يحدث .. انتظارا لان يتمزق الصف ، وتتفتت القوة ، وتذهب الوحدة التى أذهلت الدنيا – فى حرب أكتوبر – أدراج الرياح !!!

وربما كانت اسرائيل تنتظر « بعض » هذا الذى يحدث .. اما « كل » هذا الذى يحدث ، فما نظن انها كانت تنتظره .. او تتوقعه . صحيح ان اختلافاتنا ، قبل حرب اكتوبر .. وحتى حرب أكتوبر ، كانت كبيرة .. وأيضا كانت ضارية . لكن السرعة ، بل والقوة اللتين تجمع بها الصف العربى فى مواجهة تلك الحرب .. كانت تنبىء بأننا تجاوزنا خلافاتنا ، وأننا تعلمنا الدرس ، واننا وضعنا ايدينا على نقاط القوة ، والضعف فينا . لكن الحرب ماكادت تنتهى – وهى فى الحقيقة لم تنته .. ولن تنتهى – حتى عدنا كما كنا .. عدنا يتهم بعضنا بعضا بالاستسلام ، وبالتفريط ، بل وبالخيانة .!!

ثم .. ثم ماذا ؟

ثم آندلعت النيران ..!!

* أطلقت بغداد على دمشق صواريخ اعلامية قاتلة .. وبادلتها دمشق صواريخا بصواريخ . !!

* وفى القاهرة . بدأ الرئيس الســادات يرد على النيران التى فتحها عليه .. وعلى مصر .. العقيــد القذافى ..

* وفى بيروت .. أطلت ، برأسها ، فتنة سوداء لن تبقى — فيما لو لم تواد فى المهد — ولن تذر !!

ان تطويق هذا الذى يجرى فى الساحة العربية الان ، امانة فى اعناق القادة العرب الذين لم تمسسهم النــار التى شبت بين الاخوة .. أيا كانت مواقعهم ومعتقداتهم .. وهم مطالبون لان يتحركوا بأقصى السرعة والقوة ، قبل أن تتحول هذه النيران الى شيء يستحيل تطويقه .

ان الموقف صعب .. والخطر عظيم .. و .. و « فيليب » على الابواب . لا .. بل هو داخل الابواب .!

تل الزعتر !!

مثلما بقيت « ستالينجراد » رمزا انسانيا باهرا على عظمة الرجال ، وبطولة الرجال ، وصمود الرجال .. كذلك — وبنفس القدر ... والعظمة — سوف يبقى « تل الزعتر » . فليس ثمة فارق يذكر بين فاشية « هتلر » وفاشية « نمور شمعون » ، وكتائب الجميل .. أيضا ، ليس ثمة فارق يذكر بين بطولة ، وصمود الرجال من أبناء تلك المدينة الروسية الباسلة التى دخلت التاريخ من أوسع ابوابه ، وبين بطولة وصمود الرجال من أبناء « مخيم تل الزعتر » الذى دخل هو الاخر التاريخ من اوسع ابوابه . فلقد صمد آبناء « ستالينجراد » ثلاثة اشهر كاملة للنيران تنهال عليهم كالمطر من السماء ، وكالبراكين من باطن الارض .. وكذلك صمد الابطال من أبناء « تل الزعتر » .

اربعة وخمسون يوما مرت عليهم وهم ، كالجبال ، صامدون .. تتكسر على صخرة مقاومتهم الباسلة الهجمة بعد الهجمة .. والغارة بعد الغارة .. ويتفتت السلاح بعد السلاح !!. استشهد كثيرون ، وجرح كثيرون ، ومات بفعل الظمأ ، وبفعل نزيف الدم ، كثيرون .. كل ذلك ، والمخيم صامد .. يقاوم ولا يستسلم ، يشمخ برأسه ولا يركع ، ينزف الدم ويموت واقفا !!.

مثال لن يفنيه الزمن لعظمة الرجال ، وصمود

الرجال ، وبطولة الرجال . فلما ان نفد من « المخيم البطل » كل شيء : السلاح ، والطعام ، والماء ، والدم .. استطاع الفاشيون الجدد .. « نمور شمعون » .. و « كتائب الجميل » .. أن يدخلوه ولكن .. بعد ماذا ؟! .

بعد أن دفعوا الثمن فادحا .. بعد ان قتل منهم « المخيم » آلاف « الكلاب » .. وبعد ان ترك منهم آلافا آخرين لاهم بالموتى ، ولاهم بالاحياء .. وبعد ان حملهم عارا لن تستطيع مياه المحيط ، والخليج ، أن تغسله عن رءوسهم !!.

وبقدر « العار » الذى سيظل — والى أبد الابدين — يلاحق « نمور شمعون » و « كتائب الجميل » ، سوف يكون « الشرف » .. وسوف يكون « المجد » اللذان سيظل اسم « تل الزعتر » — والى أبد الابدين — يسكبهما فى مسمع الدنيا .

ان « تل الزعتر » لم يسقط .. فقط ، نفدت من بين أيدي أبطاله كل مقومات الاستمرار : السلاح . والطعام والماء ، والدم . ومن ثم ، اقتحم « الكلاب » الابواب ، ولكن .. ليس هناك ثمة مجد أرفع .. ولا اروع .. من ذلك المجد الذى يكلل رءوس رجال يموتون .. وهم وقوف .

لبنان والمصير الأسود !!

الحـريق فى لبنـان ما يزال مشتعلا .. وانهار الدم هناك ماتزال تنفجر من أجساد أشقاء الجبل الاخضـر بأيدى بعضهم البعض ، وبرصاص بعضهم البعض . ولا أحد قادر ـ حتى الان ـ على اطفاء الحريق ، ولا أحد قادر ـ حتى الان ـ على ايقاف أنهار الدم . وبدلا من أن يعمل الجميع ـ العرب جميعا ـ على انقاذ لبنان من المصير الاسود الذى تكاد كل المؤشرات تجمع على أنه ينحدر اليه فى سرعة مروعة ـ بدلا من أن يحدث ذلك ، راح أشقاء عرب آخرون يتهيأون ، فى المغـرب العربى للانقضاض على بعضهم البعض .. ولقتـل بعضهم البعض !!.

ولقد اختار الاشقاء العرب أن يحدث هذا الاقتتال فيما بينهم ، فى الوقت الذى مايزال فيه العدو الحقيقى للعرب جميعا ـ من المحيط الى الخليج ـ كامنا بين جلودنا وعظامنا .. فاى خزى هذا الذى تلحقه الزعـامات العربية بكل انسان عربى .. فى كل مكان من أرض العرب ؟!

اليس فى مقدور واحد من هؤلاء القـادة العـرب الذين اخذوا يتهيأون لقتل بعضهم البعض ، ان يفطن الى ان كل رصاصة .. واية رصاصة .. تطلق فى اتجاه صدر أى انسان عربى ، أولى بها صدر آخر .. صدر عدو حقيقى يحمل من العداوة للعرب ، ومن كراهتهم ،

ومن التربص بهم ، والحقد عليهم .. ما لن تكفى فى غسله مياه المحيط ، والخليج ؟!!

انه أمر من البداهة بحيث ماكان يجب ان يغيب عن فطنة واحد من هؤلاء الزعماء .. وفيهم الاذكياء جدا .. « وفيهم المجربون جدا .. وفيهم من يستحيل القول بانه لا يعرف الى صدر من — على وجه التحديد — ينبغى أن يسدد الرصاص !!

ثم ......

الى متى ستظل هذه الزعامات راضية بأن ينظر العالم الينا ، فلا يجد فى كل مايصدر عنا .. ويحدث منا .. الا كل مايثير ضحكه ، وسخريته ، وأيضا هزؤه ؟!!

نعم .. الى متى ؟!!

نكسات واصابتنا .. هزائم ولحقت بنا .. ارض وضاعت منا . كرامة ولحق بها ذات يوم — ليس ببعيد ابدا عن ذاكرة الجميع — هوان ليس بعده هوان !!

فأى شيء أكبر من ذلك تريده هذه الزعامات ان يحدث .. لكى تتوازن ، وتتعقل ، وتدرك أننا نتولى — نيابة عن أعدائنا — تدمير قوانا ، وتمزيق صفوفنا ، وكأننا موكلون من الشيطان بتخريب ديارنا ، وتحويلها الى اطلال تنعى من بناها ..

ثم ...

ياشعوب العرب جميعا .. اين أنتم ؟!!

اين أنتم لكى توقفوا كل هذه المآسى التى تجرى .. ولكى تقولوا لهذه الزعامات : كفى .. ؟!!

سبحان الله !!

بحان الله .. !!

ان حتما أن يقع على ارض « لبنان » كل ذلك الذى ، لكى يحدث هذا الذى حدث فى « قمة الرياض » .؟

ان حتما ان نغرق فى « حمامات الدم » حتى آذاننا، يحدث هذا الذى حدث ..؟!!

كان حتما أن يستشهد منا الالاف ، ويتيتم الالاف ، مل الالاف ، لكى يحدث هذا الذى حدث ..؟!!

كان حتما ان يعم الدمار « لبنان » ويصبح الخراب « سيد الموقف » هناك ، لكى يحدث هذا الذى ى ..؟!!

كان حتما ان تتطاير « الوحدة العربية » شظايا ، يتخذنا العالمين هزؤا ، لكى يحدث هـــذا الذى ى ..؟!!

كان حتما أن تتفتت قوى « الثورة الفلسطينية » ، تفقد من رجالها مافقدت ، وان يتبدد من ســـلاحها د ، لكى يحدث هذا الذى حدث ..؟

ى حدوث ماحدث فى « قمة الرياض » ، اليوم ، له من معنى الا انه كان ممكنا أن يحدث من قبل .. قبل أن يعم الخراب ، ويسود الدمار ، ويذهب ، والسلاح ، والرجال .. هباء منثورا !!

لماذا سكتنا حتى هذه اللحظة ..؟!!

لماذا سكتنا حتى أصبح عدد البيوت المدمرة في لبنـ
أكثر — بكثير — من عدد البيوت التى بقيت قائمة
أعوادها .. ؟!!

لماذا سكتنا حتى أصبح عدد الشهداء من جميع
الاطراف المتقاتلة ، أكثر — بكثير — من عدد الأحياء
كل هذه الاطراف ..؟

لماذا سكتنا حتى أصبح ذكرنا — نحن العرب
لا يحرك عند « الآخرين » غير الشماتة .. والهزء
والسخرية ..؟

لقد سكتنا ، للاسف الاليم ، وسكتنا .. وسكتنا
لكننا دفعنا ثمن هذا « السكوت » أغلى مايكون الثمن
دفعناه آلافا من الشهداء ، وأطنانا من السلاح ، وجـ
من الاموال التى ماكان أحراها ان تصرف فى « بحـ
الاخوة والمحبة » .. وليس فى « بحر البغضاء » والعد
والكراهية » .!!

انهم — وانتم تعرفون من أعنى « بأنهم » — يسلط
على أنفسنا ..
يستخدموننا ضد بعضنا البعض . يضعون أيد
فوق الزناد ، ويتركوننا نطلق الرصاص على صدورنا
ولكن ...
لماذا .. ؟

لماذا نكون نحن من السذاجة أحيانا .. ومن الغـ
أحيانا .. ومن الجنون دائما .. فنتركهم يفعلون بـ
مايريدون أن يفعلوا .. ؟!!
ثم ..

لماذا لا يتحرك « الراشدون » منا ، مثلما تحركوا الى « قمة الرياض » ، الا بعد أن تكون النار قد أكلت كل شيء .. والا بعد أن يكون الجسد العربى لم يبق فيه من الدم مايمكن أن ينزفه .. والا بعد أن تكون الكرامة العربية .. والسمعة العربية .. وحتى الانتصارات العربية ـ قد ذهبت اثرا بعد عين ؟!!

أنا لا أعرف الجواب .. فهل يعرفه أحد منكم .؟

عن :
الصحافة .. والصحفيين

الحرية التزام !!

تعرضت الصحافة المصرية .. وتعرض الصحفيون المصريون ـ اكثرهم على الاقل ـ لقدر كبير من اللوم ، ليس هناك من شك فى انها تستحقه ، ولا فى أنهم يستحقونه .

صحيح انهم مارسوا « الحرية » بعد سنين طويلة جدا من « الكبت » . لكن الصحيح أيضا أن « رد الفعل » لم يكن معقولا ، ولا مقبولا .!! فمحاولة الغاء عشرين سنة كاملة من تاريخ مصر ، الغاء شاملا كاملا .. شيء مستحيل ان يكون معقولا ، أو مقبولا .. ومحاولة اظهار مصر بانها قد تحولت ـ خلال تلك السنوات العشرين ـ الى مجموعة من الخرائب لاينقصها الا « البوم » ينعق على اطلالها .. شيء مستحيل كذلك ان يكون معقولا أو مقبولا !! لقد وجدها البعض فرصة متاحة لينفسوا ـ تحت ستار الحرية الصحفية التى اتيحت لهم ـ عن احقاد شخصية دفينة .. قديمة ، وجديدة .. وتقمص جميعهم شخصية « دون كيشوت » .. وشرعوا أسلحتهم .. ومضوا يقاتلون « طواحين الهواء » .!!

ولا احد ينكر ان ثورة ٢٣ يوليو ، وان « عبد الناصر » ـ شخصيا ـ قد خلفا وراءهما جرحى كثيرين . وربما اكون انا نفسى واحدا من هؤلاء الجرحى الذى خلفهم « عبد الناصر » وراءه .. وربما يكون جرحى اعمق بكثير من جراح غيرى .. لاننى ـ على الاقل ـ كنت

صديقه .. وكان بيننا ـ ولسنين عديدة «عيش وملح.»
لكن التألم من الجراح شيء .. وملاحقة الرجل وثورته .. بالشتائم وبالسخائم .. وبتجريده من كل مواقفه ، ومن كُل أمجاده .. شيء آخر تماما .

ليس هناك ـ بالتأكيد ـ ماهو أغلى من الحرية .. شريطة أن تمارس بانضباط ، وبمسئولية ، وقبل كل ذلك . بشرف . أما اذا تجردنا ، فى ممارسة الحرية ، من كل هذه الضوابط .. فان الامر يتجاوز حدود الحرية ، ويتحول الى فوضى لا يستطيع أحد أن يصبر عليها .

ليت القيادات الجديدة فى الصحافة المصرية ، تدرك هذه الحقيقة وتلزم نفسها بها .. حتى لا تصحوا يوما فتجد نفسها وقد خسرت أغلى مايمكن أن تنتعش ، من خلاله ، صحيفة .. وأغلى مايمكن أن يتنفس ، من خلاله ، قلم .

أجمل من الحقيقة .. الالتزام بها !!

في الصحافة .. كما في الاذاعة .. كما في كل وسائل الاعلام – هناك كثيرون محتاجون ، وبشدة ، لأن يتعلموا الموضوعية .. ولان يلتزموا « الحقيقة » – لا يتجاوزونها – في كل حرف يكتبونه . وفي كل كلمة يقولونها . واذا نحن – صحفيون .. واذاعيون – أدخلنا في اعتبارنا ، عندما نكتب .. او نتكلم ، أن للناس عقولا تعي .. وآذانا تسمع .. وعيونا تبصر ، وانهم ليسوا من الغفلة .. ولا من السذاجة . بحيث يجوز عليهم كل ماتكتب ، أو تقول .. لوفرنا على أنفسنا كثيرا من ذلك « التعب » الذى نبذله في سبيل تزييف الاشياء ، او تضخيمها ، أو خلقها – خلقا – حيث لا يكون له ثمة وجود آلا في خيالاتنا !

وليس هناك ، في رأيي ، ماهو أخطر علينا – صحفيين .. واذاعيين – ولا أدعى لفقدان احترام الجماهير لنا ، من تزييف الاشياء أو تضخيمها .. ذلك لانه اذا فقد الناس ثقتهم بنا في حالة ما .. او في موقف ما .. فانهم لابد وان يفقدوا الثقة بنا في كل الحالات ، وفي كل المواقف ، بما فيها المواقف التي « قد » نلتزم فيها جانب الدقة في تقديم « الحقيقة » بلا تزييف ، ولا تضخيم ، ولا خلق من عدم .

ان الحقيقة جميلة .. ولكن – أجمل منها ، ولاشك ،

التزام منتهى الصدق فى تقديمها ، صحيح ان الطريق الى ذلك صعب .. ولكن أسهل الطرق ليس هو دائما أسلمها ، ولا أجلبها للاحترام .. احترامنا لانفسنا ، واحترام الآخرين لنا . واننا لنستطيع ان نخدع بعض الناس كل الوقت .. كما أننا نستطيع أن نخدع كل الناس بعض الوقت .. لكن المؤكد أننا لن نستطيع أن نخدع كل الناس .. كل الوقت ..

وتلك هى « الحقيقة الكبرى » التى يتحتم علينا ـ صحفيين .. وداعيين ـ أن نضعها تحت عيوننا .. كلما وسوس لنا الشيطان ، او وسوست لنا أنفسنا، أن نزيف .. أو نضخم .. أو نحدث الناس عن أشياء لا وجود لها الا فى خيالاتنا !!

الأقزام .. لايحس بهم أحد !!

في ســــنة ١٩٤٤ عندما عاد رجل فرنسا العظيم « شارل ديجول » الى باريس منتصرا ، بعد خمس سنوات من الهزيمة المرة ــ كان من أول الاشياء التى طلبها « ان تكون لفرنسا صحيفة عظيمة » .. فــكانت « صحيفة لموند » .

واليوم .. تدور فى باريس ، وفى عواصم أوربـــا الغربية كلها ، معركة بالغة العنف ، حول « لموند » .. بعد أن اصدر واحد من محرريها السابقين البارزين كتابا عنها ، اتهمها فيه بالانحياز للعرب .. وباللاموضوعية ، وبالتعاطف مع « اليسار الفرنسى » .. وغير الفــرنسى ايضا !!

وانقسم الناس داخل فرنسا .. وفى خارجها .. حول ماجاء فى كتاب محرر « لموند » السابق : فــريق معه . وفريق ضده . فريق يقول انه على حق . وفريق يقول أنه يتجنى . و « لموند » نفسها تقول انه «كذاب» .. وتزداد المعركة سخونة .!

وأيا ماكانت نتيجة هذه المعركة .. فالشيء المؤكد ان « لموند » ــ كما قد عاشت قبلها ــ فانها سوف تعيش بعدها . صحيح أنها قد تتأثر ، وقد ينالها بعض الشرر المتطاير من هنا أو من هناك . لكنها سوف تبقى .. تماما كما تبقى الشجرة الشامخة .. العميقة الجذور .. بعد ليلة عاصفة ، فالليل ، هنا ، يموت .. والعاصفة

ايضا تموت .. وتبقى الشجرة .. ويبقى شموخها .

وليس هناك دليل على عظمة « لموند » اكبر من ان يصدر حولها مثل ذلك الكتاب .. وان تثور حولها مثل هذه العاصفة . فالاقزام لا يحس بهم أحد ، ولا يتطاول عليهم أحد .. لانهم ـ بطبيعتهم ـ ليس لهم طول ، ومن ثم .. فلا مجال للتطاول .!!

لقد ثارت عواصف مشابهة ، تماما ، لهذه التى ثارت ضد « لموند » .. ضد الرجل العظيم الذى تمنى ذات يوم من سنة ١٩٤٤ ، أن تكون لفرنسا صحيفة عظيمة .. ومع ذلك ، لم تستطع هذه العواصف الهوجاء التى ثارت ضد « شارل ديجول » ان تنال منه شيئا .. وكما يتهمون « لموند » اليوم باللاموضوعية .. وبالانحياز .. وبأشياء أخرى كثيرة ، فقد اتهموا « ديجول » بالديكتاتورية ، وبعبادة الذات ، وبالاستعلاء على كل شخص ، وعلى كل شيء .. حتى على فرنسا نفسها !!. لكن هذه الاتهامات جميعها مالبثت حتى ماتت . لانها كانت تحمل ، فى ذاتها بذور موتها .. وعاش « شارل ديجول » .. وسيظل يعيش .. على الرغم من الحقيقة التى تؤكد انه قد مات !!

أشرفهم — وهو احمد بهاء الدين — الا أن كفـــاءة « بهاء الدين » ، وشرفه ، لم ينجحا فى آن يغطيا على « رائحة الحكومة » آلتى كانت تفوح من خلال صـفحات جريدة « الشعب » . ومن ثم ، ماتت الصحيفة قبيل ان تحتفل « بالربيع الاول » من عمرها . !!

الا ليت آلذين تأخذهم العزة بأموال الحـــكومات وبسلطان الحكومات ، وبقدرة الحكومات على شراء آخر صنيحات « المطابع » وآخر صيحات « الورق المصقول » ، وآخر صنيحات « الكتاب » .. و « أشباه الـــكتاب » الذين يبيعون أنفسهم فى « سوق النخاسة » — ليتهم يتفهمون هذه الحقيقة البسيطة جدا .. والاولية جداً .. والتى تؤكد ان « الصحافة الحقة » انما هى اتجاه ، ورأى ، وموقف . وانه لمستحيل استحالة دخول الجمل فى سم الخياط ، أن يكون لصــحيفة تصـنعها حكومة .. اتجاه ، أو رأى ، أو موقف .

ـحافة : اتجاه .. ورأى .. وموقف ..!!

لق صــــحافة تصــفق .. تهلل .. تردد ، بمناسبة
بغير مناسبة : « يعيش .. يعيش .. يعيش » ،
يس هناك ماهو اسهل منه . لكن هذه يمكن ان تكون
شيء » ، الا انها صحافة . ذلك لان الصحافة الحقة
هى اتجاه ، ورأى ، وموقف . ومن هنا ، فانه مهما
، الحكومات .. ومهما أصدرت من صحف ملونة
ة الوان ، أو حتى بعشرة ألوان .. ومهما اشترت من
، وأشباه كتاب .. فانها لن تستطيع ، فى نهـاية
، ان تصنع صحيفة يقرؤها الناس .. لانه يـكفى
، فى رأى الناس ، أن تصدر الصحيفة عن جهـة
بية ما .. أو عن هيئة حكومية ما .. لكى يختصمها
لناس ، ولا يقرؤها أحد .. اللهم ـ طبعا ـ الا الذين
وها !!

لقد ولدت جريدة «الجمهورية» المصرية ، وهى تعانى ـ
فس لحظة الميلاد ـ سكرات الموت ، لا لسبب ، الا
الناس كانوا يعرفون انها « جريدة الحكومة » ..
؛ فى ثورة ٢٣ يوليو . ولقد سبقت جـــــريدة
جمهورية » الى الموت صحف كثيرة كانت ثورة يوليو
نشأتها . فماتت مجلة « التحرير » .. وماتت مجلة
ء الوطن » .. وماتت جريدة يومية أخـرى ، كان
ها « الشعب » . !! ومع أن الجريدة الاخيرة ، كان
، تحريرها واحد من أكفأ الصحفيين العرب .. ومن

تقاليد صحفية !!

صديق مشغول بأمور الصحافة سالني :

ــ الا ترى أنه من المهم اذا نقلت صحيفة عربية عن صحيفة عالمية موضوعا ما ، أن تذكر اسم الصحيفة التي نقلت عنها ؟ .

ــ ذلك جائز ، ولكنه ليس حتميا . وفرق كبير بين ماهو جائز وماهو حتمى .

ــ لكنني اتصور ان التقاليد الصحفية تحتم ذلك .

ــ لو أن ذلك حتمى ، كما تقول ، لالتزمته صحف كبرى فى الشرق وفي الغرب ، ولكن هذا لا يحدث وعندى أكثر من مثل أستطيع ان اسوقه لك .

ــ ولكن صحفا كثيرة تفعله .

ــ هذا صحيح . غير أن صحفا كثيرة أخرى لاتفعله وربما يكون المسئولون عن الصحف التى لا تفعله اكثر عراقة في خدمة الصحافة ، وفى العلم بأصولها وتقاليدها من المسئولين عن الصحف التي تفعله . انهـا ــ في التحليل الاخير ــ قضية منهاج شخصى يختلف من صحف الى آخر ، وليست قضية تقاليد تفرض نفسها على الجميع .. والصحافة ، كما تعلم ، مهنة بحورها واسعة ودروبها متعددة . فما تجيزه صحيفة « الديلى ميرور البريطانية لنفسها ، مثلا ، لايمكن أن تقبل به . صحيفة « التايمز » . وهى بريطانية أيضا . ومالجيزه ــ أ

ن آخر – صحيفة « فرانس ديمانش » الفرنسية
سها ، ترفضه رفضا مطلقا صحيفة « الموند » . وهى
نسية كذلك . وربما نستطيع من خلال هذين المثلين .
ن غيرهما – وهو كثير – ان نقول ان هناك « تقاليد »
عها كل صحيفة لنفسها . لكننا لا نستطيع القول ان
اك « تقاليد » واحدة .. او موحدة .. تفرض نفسها
كل الصحف ، وعلى كل الصحفيين . فهناك
حيفة تعتمد « الموضوعية الصارمة » خطا لها . وهناك
رى تعتمد « الاثارة الفجة » خطا آخر .. وهذا
تقليد » . وذاك « تقليد » .. ولكن أيا من التقليدين
س الا مجرد اختيار شخصى من جانب المسئولين عن
ه الصحيفة ، أو تلك . الشىء الوحيد الذى لا يجوز
مطلقا – ان يكون محل اختيار شخصى ، هو الدين
وهو الاخلاق .. وهو أمن ومقدسات المجتمع الذى
در فيه الصحيفة . وفيما خلا هنا الركائز الاساسية
بع التى يحتم على كل صحفى ، وكل صحيفة ،
ترامها .. بل وتقديسها .. فالصحافة حرة فى ان
ل ماتشاء .. ولكل صحيفة الحق المطلق فى أن تختار
سها الدرب الذى تسلكه ، دون ان يكون لاحد – غير
انون – سلطان عليها .

الخير .. ليس خيرا !

مستحيل ..

مســـتحيل فى مهنتنـــا ان يعترف الفاشلون ، او القاصرون ، بفشلهم أو بقصورهم . بل لابد لهــم من « شماعة » يعلقون عليها مسئولية هذا الفشل ، وذلك القصور . فاذا كانت « الادارة » حازمة ، ومنضبطة مع نفسها ــ قبل أن تكون منضبطة مع الآخرين ــ وتدير امورها وفق ايمان عنيد بالاســـــتقامة ، وبالامانة، وبالشرف .. فهى ، اذن ــ ومن وجهة نظــر هؤلاء الفاشلين أو القاصرين ــ ادارة ديكتاتورية .. ومستبدة .. وظالمة !! كأن « العدل » هو ان نتيح الفرص لمن يشاء ، لكى يعبث ، ولكى يلعب ، ولكى يأخذ الكثير مقابل اقل القليل يقدمه ، او مقابل لا شىء على الاطلاق . فان انت أبيت على أولئك الفاشلين او القاصرين . ان يتخذوك « مطية » لهذا السلوك المشين .. فانت ظالم وانت مستبد ، وانت ــ قبل هذا وذاك ــ انسان لاتعرف « الانسانية » الطريق الى قلبك !! كأن « الانسانية هى ان تسرق .. او ان ترضى ، على الاقل ، بأن يسرق الآخرون !!

ولان « الخير » ــ صحفيا ــ ليس خبرا .. وانما « الشر » هو الخبر ، فانك سرعان ماتجد العشرات وربما المئات ، الذين « يتبرعون » بترديد ما يشيعه الفاشلون عنك ، ويلصــقونه بك ، دون أدنى جهـــا

يبدلونه في محاولة للتعرف على الحقيقة .. ولماذا يجشمون أنفسهم مثل هذا الجهد .. مادام دور « الببغاوات » يكفيهم .. ولعله ، أيضا ، يسعدهم ، ويرضيهم . ؟!!

ولكن القضية — أولا .. وأخيرا — هي قضية علاقة محددة بين المرء وربه .. بين المرء وضميره . أما الناس فانهم نادراً مايرضون .. بل هم مستحيل أن يرضوا عنك ، مادمت تأبى عليهم أن يجعلوا منك « جسرا » يمرون عليه الى تطلعاتهم ، وشهواتهم ، ونزواتهم . !!

وبمقاييس مثل هذا « الصنف » من الناس ، فإن « عمر ابن عبد العزيز » كان ظالما .. لانه كان عادلا . كما أن « عمر بن الخطاب » كان أشد ظلما .. لانه كان أكثر عدلا.

ولعلهم — أقصد هذا الصنف من الناس — ينسون أن الله نفسه — وهو أعدل العادلين — ليس ثمة جزاء لديه .. الا من جنس العمل .

المهمة المستحيلة .!!

الصحفي العربي ؛ أي صحفي عربي - يحرص ، هذه الايام ، على « كلمة الحق » .. وعلى « شرف الكلمة » انما هو كمن يقبض على الجمر .. كمن يمشي عاري القدمين على أشواك كرءوس الحراب .. كمن يمخر عباب بحر رهيب بغير « بوصلة » . فما يمكن أن يرضى عنه الاشقاء في سوريا ، لابد وان يغضب - وإلى حد السخط - الاشقاء فى العراق . والعكس صحيح تماما .. ومايمكن أن يرضى عنه الاشقاء فى كل من سوريا والعراق - ان كان ذلك متاحا ، أو ممكنا - لابد وان يغضب الاشقاء فى مصر .. وما يمكن أن يرضى عنه الاشقاء فى المغرب ، لابد وان يستثير حفيظة الاشقاء فى الجزائر . والعكس هنا صحيح أيضا .!

وهكذا .. أصبح الكاتب الحريص على « كلمة الحق » .. وعلى « شرف الكلمة » كمن يسير على حبل رفيع .. وسط سيرك كبير .. يحرص على أن يقطع « مشواره » بنجاح .. ويخشى في ، نفس الوقت ، أن يسقط من فوق الحبل فيدق عنقه .!

مهمة صعبة .. بل هي ، بكل الصدق ، مهمة مستحيلة . ومن الممكن طبعا الا تكون كذلك .. وهى لكى لا تكون كذلك ، محتاجة الى « نوعية خاصة » من الناس .. محتاجة الى اناس « احترفوا » الكذب على انفسهم .. وعلى الآخرين .. أناس اغتالوا ضمائرهم ،

بأيديهم .. ولم يترددوا في أن يوآروها بتراب المصال .. والابهة .. والتنقل « بطائرآت خاصة » من دولة الى دولة .. ومن مكان آلى مكان .!!

ولكنهم لو علموا ماذآ يقول عنهم أولئك الذين يدفعون لهم « ثمن كل هذه الابهة التي يتمتعون بها .. ويغرقون حتى الاذنين ، فيها .. وكيف ينظرون اليهم .. فربما ـ واقول « ربما » .. لان الطبع غلاب ـ كانوا يفضلون السفر من دولة الى دولة ليس « بطائرآت خاصة » وانما مشيا على الاقدام .. تفاديا لمشاعر « الاحتقار » التي يحملها لهم اولئك الذين يدفعون لهـــم « ثمن » تلك « الطائرات الخاصة » التي يتنقلون بها من عاصمة تدفع لهم كثيرا الى عاصمة تدفع لهم أكثر .!!

تقول الدراسات الصحية العالمية : « ان الصحفيين هم أقصر الناس عمراً .. واكثرهم تعرضا لذبحة الصدر .. وانفجارات المخ » . هذآ ماتقوله الدراسات الصحية العالمية عن الصحفيين بشكل عام .. لكنني اعتقد ان هذه الدراسات لو تعمقت آكثر .. وأكثر .. لاكتشفت ان هؤلاء الذين يرحلون مبكرين بانفجـار في المخ .. او بذبحة في الصدر .. أنما هم صحفيون من نوع خاص .. صحفيون « نظفاء » .. كان لديهم ـ بالقطع ـ شرف .. وكان في صدورهم ـ بالقطع ـ ضمير . ولم تكن لديهم ـ بالقطع ـ « طائرات خاصة » !!

كبش الفداء !!

ذكرتني الاجابات التى أجاب بها الرئيس التونسى .. الحبيب بورقيبة .. عن أسئلة الصحفيين فى المؤتمر الصحفى العالمى الذى عقده الرئيس التونسى ، بمناسبة الذكرى العشرين لاستقلال تونس - ذكرتنى بذلك « الملحق الاعلامى » الذى كانت صحيفة « الاهرام » قد أصدرته عن تونس فى أعقاب هزيمة سنة ٦٧ .. ففى ذلك « الملحق الاعلامى » كان هناك حديث جرىء للزعيم التونسي عن تلك الهزيمة المفجعة ، ومقدماتها ، ونتائجها . وفى هذا الحديث نفسه ، كانت هناك فقرة تحدث فيها الحبيب بورقيبة عن مسئولية عبد الناصر شخصيا عن تلك الهزيمة . وفى تلك الفقرة قال الرئيس التونسي : « ان الزعيم الذى يقول انه كان ينتظر أعداءه من الشرق ، فاذا بهم يجيئون من الغرب .. لا يصح أن يكون زعيما ، ولا يصح أن يبقى فى مكانه لحظة واحدة » !!

ولم يكن عجيبا أن يقول الزعيم التونسي مثل هذا الكلام عن عبد الناصر . فلقد كان مابين الرجلين من صدام جاد فى الاراء ، والافكار ، والمواقف أشهر من أن يجهله أحد . لكن الذى كان عجيبا ، بل ومذهلا ، هو أن ينشر هذا الكلام فى صحيفة تصدر فى القاهرة .. وان تكون الصحيفة التى تنشره هى صحيفة « الاهرام » بالذات !!

وانتظر الناس بعد أن نشر هذا الكلام ، وقراوه . انتظروا أن يعزل رئيس تحرير « الاهرام » من منصبه .

أو أن يوقف ، على الاقل ، من عمله .. مثلما حدث مع كثيرين لا تعتبر أخطاؤهم ، خطأ .. بالقياس الى هذا الخطأ الفادح الذى وقعت فيه عجوز الصحافة المصرية ، لكن شيئا مما توقعه الناس لم يحدث .. وحدث بدلا منه أن جرى البحث عن « كبش فداء » يمكن اعتباره مسئولا عما نشر ، ومن ثم ، يقدم قربانا لهذا الموقف .. ووقع الاختيار على « رقيب » الصحيفة ليكون هو « كبش الفداء » المطلوب . فخصم له ١٥ يوما من راتبه ، وأبعد عن العمل فى مجال « الرقابة » على الصحف !!

ومضت سفينة « الاهرام » تمخر عباب البحر ... وكأن شيئا لم يحدث !!

الحقيقة .. لها يوم !!

كتب صــاحبي كتــابا خطيرا .. خطيرا .. ومع أنه لم يقل فيه شيئا غير الحقيقة ، او بعيدا عن الحقيقة .. ومع أن كل شيء — الى جانب الحقيقة — يصــغر .. ويتضاءل ... ويصبح كعصفور صغير على قمة جبــل شاهق ، الا أن ماكتبه صاحبي كان محتاجا ، لــكى ينشر ، الى مناخ غير المناخ .. والى عقلية غير العقلية .. وربما ايضا الى عصر غير العصر .

— ولكن .. ألست تقر بأنه لا يتضمن شــيئا غير الحقيقة . ؟

— هذا صحيح .. ولكن ذكر « الحقيقة » ، في غير مناخها ، وفي غير اوانها ، يمكن ان يصبح ضربا من الجنون فالمشي فوق القمر هو — الان — « حقيقة » لا يأتيهــا الباطل من بين يديها ولا من خلفها . ولكن هــــذه « الحقيقة » نفسها كانت كافية — في عصر مضى — لان تذهب بمن يقول بها الى مستشفى المجانين .. تماما كما حدث ، من قبل ، مع « جاليليو » عندما كاشف قــومه بنظريته في « كروية الارض » . لقد اعتبروه مخرفا ، بل ومجنونا ، وعذبوه ، وسجنوه ، وثلموا عينيه .. عقابا له على ماطلع به عليهم .!! ثم .. ثم دارت العصور، وأصبح ماكان « خرافة » و « جنونا » في عصــر « جاليليو » .. أصبح — هو الاخــر — « حقيقــة » لا يأتيها الباطل من يديها ولا من خلفها . وعندئذ هب

احفاد الذين اعتبروا « جاليليـــو » مخـــرفا بل ومجنونا ، وعذبوه ، وسجنوه ــ هبوا لتكريم اسمه ، واقاموا له التماثيل ، وراحوا يزهون به باعتباره واحدا من أعلامهم ، بل واحداً من امجادهم .!! ولكن ذلك كله حدث ، بعد ان كان « جاليليو » نفسه قد مات « مثلوم العينين » بأيدى قومه .. لانه صارحهم « بحقيقة » لم يكونوا ــ بحكم عقليتهم .. وبحكم المناخ الذى كــان يحكمهم .. وبحكم العصر الذى كانوا يعيشونه ــ مهيأين للاستماع اليها .. فما بالك بالاقتناع بها .

ــ وما العمل اذ ن..؟

ــ ليس هناك من عمل الا « الصبر » .. الا انتظــار « الغد » وما سوف يأتى به ، حتما ، من تغيرات فى العصر ، وفى المناخ ، وفى العقلية .. وعندئذ ، يصبح ماهو « مستحيل » ، اليوم ، قوله .. طبيعيا ومقبولا، بل ومطلوبا ايضا .. اما قبل ذلك ، فانت لست نبيا .. كما انك لست رسولا .. ومن هنا ، فانك لن تستطيع أن تحتمل ان يقع عليك شيء مما وقع على الانبياء ، وعلى الرسل ، من اضطهاد .. ومن عذاب .. وتعذيب ، لانهم تلقوا الامر من « صاحب الامر » بأن يقودوا أقوامهـــم الى النور .. وبأن يبددوا الظلمات .. كل الظلمات التى تغشى عقولهم ، وصدورهم ، وحياتهم .

شهيد الحرف .. والكلمة !!

كلنا سوف نموت ..

ولكن .. ليس هناك ، بالتأكيد ، ماهو أروع من ميتة يسقط فيها الانسان « شهيداً » في ساحة الواجب .. مدفعه في كتفه ، او قلمه بين أصابعه ..

وقد سقط شهيداً في ساحة الواجب ، الكاتب .. الصحفي .. الزميل « ابراهيم عامر » .. قتله أولئك الاخساء جداً .. الضعفاء جداً . الذين لا يستطيعون مقاومة الحرف ، والكلمة ، الا بطلقات الرصاص .. وبالقنبلة والمدفع ، فلقد هجموا بقنابلهم ، وبمدافعهم ، على صحيفتي « المحرر » .. و « بيروت » .. وكان « ابراهيم عامر » ساعتها موجودا داخل الصحيفة الاخيرة .. يؤدي واجبه كما اعتاد دائما أن يؤديه .. ببسالة ، وبحب ، وبرغبة جياشة في العطاء .. ليس كمثلها رغبة .

ولقد عرفت « ابراهيم عامر » ، أول ماعرفته ، على أرض جريدة « الجمهورية » حين ذهبت اليها في سنة ١٩٦٤ ، رئيسا لمجلس ادارة المؤسسة . كان خارجا لتوه من المعتقل ، بعد أن قضى وراء أسواره خمس سنوات من ازهى سنوات عمره . ولكن هذه السنوات الخمس المريرة لم تستطع أن تعدو على ابتسامته ؟ ولا ان تطفىء شيئا من حماسته ، ولا من عشقه المشبوب للعمل .. وللحرف ، وللكلمة .

وكما أن الكفاءة لا تدعى .. فانها أيضا لا تدارى . صحيح ان الادعياء كثيرون . لكن القادرين على كشف الادعياء لا يزالون أكثر . ولم يكن « ابراهيم عامر » ـ شهادة لله ، وللحق ـ من أدعياء الكفاءة ، وانما كان كفاءة أصيلة .. كفاءة تستند ـ بجانب العشق المشبوب للحرف وللكلمة .. وللموهبة الاصيلة أصالة سبيكة من الذهب ـ الى تجربة صحفية عريضة ، لايقل عرضها عن خمس وعشرين سنة .. كان فيها عبارة عن « نحلة » .. لا تكل ، ولا تمل ، ولا تكف عن العطاء .

ولقد خرج « ابراهيم عامر » من مصر مهاجرا بقلمه ، بعد ان رفض الخضوع لقرار أصدرته « لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكى » بتحويله ـ ومعه مايزيد على مائة ، كان فيهم نخبة من المع الصحفيين والكتاب ـ الى موظفين فى هيئة الاستعلامات .!!

رفض « ابراهيم عامر » الخضوع لهذا القرار .. وحمل سلاحه ـ قلمه ـ ومضى الى لبنان .. يمارس نفسه ، ويمارس دوره ، ويمارس طبيعته .. طبيعة « النحلة » التى لا تكل ، ولا تمل ، ولا تكف عن العطاء . حتى كان ذلك اليوم المشئوم الذىهاجم فيه صحيفة « بيروت » أولئك الضعفاء جدا .. الاخساء جدا .. الذين لايستطيعون مقاومة الحرف ، والكلمة .. بغير الرصاص والقنابل والمفرقعات .

فى ذلك اليوم المشئوم .. سقط « ابراهيم عامر » شهيدا . لكنه لم يمض من الحياة بلا وسام ، فقد اعتبرته الثورة الفلسطينية واحداً من شهدائها ..

وشيعت جنازته في بيروت باعتبـاره واحدا من هؤلاء الشهداء .

فهل هناك ماهو أروع من أن يموت الصحفى وقلمه بين أصابعه ؟ . . ثم حين تشيع جنازته ، تمشي وراءه في هذه الجنازة ثورة بكاملها . . ثورة من أشرف الثورات ، واطهر الثورات ، واقرب الثورات الى الله . . لانها ثورة من أجل الارض ، والعرض ، والكرامة ، والشرف ؟ .

الصحافة .. وقارب الاخلاق ..!!

في الرياض ـ سألني صحفي سعودي شاب لايزال يخطو خطواته الاولى على أول الدرب الطويل :

* ماهي ، من خلال تجربتك الطويلة في مهنتنا ، مقومات النجاح فيها ؟

اجبته :

ـ مقومات النجاح في هذه المهنة الشاقة جدا .. واللذيذة جدا في نفس الوقت .. أكثر من ان تعد . لكن أهمها ، من وجهة نظري .. ومن خلال تجربتي ، هو :

* اولا : ان تكون الصحافة هي عشقك الاول .. وعشقك الثاني .. وعشقك الثالث والاخير .. فالصحافة زوجة مستحيل ، استحالة مطلقة ، ان تقبل « بضرة » !!

* ثانيا : ان تكون ، بالدرجة الاولى ، موهوبا ، فالموهبة في الصحافة هي الاساس . الشهادة الدراسية مهمة . لكن الموهبة أهم .. ذلك لانها تغني عن الشهادة، وليس العكس صحيحا .. ويكفي هنا ان تعرف ان ايا من عمالقة الصحافة العرب لا يحمل مؤهلا عاليا في الصحافة .. وربما ولا في الاداب .

* ثالثا : ان تحرص على ان يظل عقلك يقظا اربعا وعشرين ساعة في الاربع والعشرين ساعة ، ففي

الصحافة ، مايفوتك عمله اليوم .. صعب جدا ، ان لم يكن مستحيلا ، تداركه غدا .

* رابعا : أن تؤمن بان الصحافة « انضباط » .. فهي ليست « فنا » بالمعنى التجريدى لكلمة فن . وانما هي « فن » مرتبط - اساسا - بدوران ماكينات الطباعة .. وبدوران أجهزة « التيكر » .. وبدوران محركات الطائرات التى تحملها الى قرائها فى كل مكان . ومن هنا ، فلا شيء فيها يقبل بالتراخى ، ولا بالتكاسل ، ولا بالتاجيل الى ألغد .. ولا الى الساعة التالية .

* خامسا : أن تؤمن بأن الصحافة اخلاق أولا .. واخلاق ثانيا .. واخلاق ثالثا واخيرا .. وليس مهما - مطلقا - ان تكون صحفيا يخافه الناس . ولكن ، مهم جدا ان تكون صحفيا يحترمه الناس ، ومهما يكن من أمر النماذج الشوهاء التى قد تعرفها ، أو تشهدها متناقضة مع هذه الحقيقة ، فعليك أن تمض - وبالنواجذ - على ايمانك « بانه لا يصح الا الصحيح .. ولن يبقى الا الاصح » .

* سادسا : أن تحترم نفسك .. وان تحترم قلمك .. وان تحترم كل كلمة يخطها هذا القلم ، ثم خض بعد ذلك البحر وانت واثق من انه مهما ارتفع الموج من حولك .. فانه لا يستطيع ان يغرقك . قد يرتفع الموج فيغطي وجهك .. وقد يرتفع اكثر فيغطى راسك . لكنه - وبالتاكيد - لن يغرقك . فليس هناك « قارب نجاة » تخوض به في هذا البحر اللجى ، اقوى ولا امتن .. ولا اقدر على مغالبة الامواج ، مهما كانت هوجاء وعالية . من « قارب الاخلاق » .

صحف حرة ..
ام قصاصات ورق ؟!!

سعدت صحف عربية ـ لا اسميها ـ باغلاق الصحف فى الكويت . واقامت الافراح على ماتم « الوطن » و « الهدف » و « الطليعة » و « الرائد » . ولم يكن هذا موقفا غريبا من صحافة هي ـ أصلا ـ مغلقة ، يمين فيها الكتاب بقرارات .. ملكية او جمهورية !!

ولكن الغريب هو أن يغالط الصحفيون أنفسهم ، فيصورون لقرائهم « المساكين » ان اغلاق صحيفة هو قمة الديمقراطية .. وأن الارهاب هو العدل ، وان كل ما ياتي به الحكام لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وليس على الصحف الا ان تؤيد الصحف ، وتبرر وتبارك .

ان صحف الكويت ، قد تخطىء . وهنا لابد من محاسبتها . وقد « تقبض » بعض الصحف من « بعض» الجهات ، وهنا لابد من معاقبتها .. ولكن ، بالقانون ، وليس بالبطش .. بالادلة وليس بالشبهات !

ولم أكن أتصور ان يمسك كاتب بقلمه ، ليلعن الاقلام الاخرى ، ويبارك قصفها ، ويحرض على مزيد من قصف الاقلام . لكن اشياء كثيرة فى هذا الزمان الرديء لم تعد مفهومة ، اذ اختلط الحق بالباطل ، ودخل الاحرار السجون ، بينما بقي اللصوص خارج الاسوار !

واذا كانت الاتهامات تنهال فوق راس الصحف

« المعطلة » فى الكويت ، فان لهذه الصحف أن تفخر بأنها قالت رأيها ، وسجلت للتاريخ كلمتها .. وكان ذلك فى أدب وموضوعية .. ولهذا فان تعطيل الصحف في الكويت لم يكن لجريمة ارتكبتها ، وانما كان لمجرد انها فتحت فمها ، ولكى تكون عبرة لغيرها .!

اما باقى صحف الكويت فليتها سكتت ، واستسلمت .. وليتها اكتفت بنشر « القرارات الاميرية » ، دون تعقيب .. ولكنها ، للأسف الشديد ، راحت تتبارى في امتهان نفسها ، وفى صب اللعنات فوق رأسها ، وفى التدليل على انها ـ كما يقولون ـ « صحافة مرتشية » تستحق أكثر مما حدث !!

ويقول العدد الاخير من جريدة « الهدف » عن تعطيل « الوطن » اليومية و « الطليعة الاسبوعية » : « ان مبدأ حرية الصحافة حيوى وهام ، والمحافظة عليه هى تأكيد لسلامة العلاقة القائمة بين الحكام والمحكومين .. وهى دليل على اننا نستطيع استيعاب النقد والاستفادة منه . ولا ريب أن التشكيك بكل صوت يرتفع ليناقش القضايا الاساسية من حرية المواطن الى ديمقراطية الشعب ، هو فى غير مصلحة الكويت العليا ..

« نحن نريد لكل مواطن ان يقول رأيه ، لان حل المشكلات لا يجب ان يكون بالصمت والهمس الخافت ، بل يجب ان يتم عبر النقاش بصوت مرتفع ومسموع دائما .. لان الصمت والهمس يصل بنا الى نتيجة ضارة بالديمقراطية والحريات » .

« ونحن لا نريد لصحافتنا حرية غير مسئولة ، ولكننا لا نريد لها ـ فى نفس الوقت ـ أن تتحول الى قصاصات

ورق : يضطهد فيها الخبر ويبتعد عنها الرأى » .

ومن أجل هذه الكلمات أغلقت « الهدف » ، لمدة ٣ شهور .!!

***

أما « محمد مساعد الصالح » ، رئيس تحرير « الوطن » و « الهدف » ، فقد كان فى فندقه بمدينة « جنيف » ، عندما رأى صورة أمير الكويت على شاشة التلفزيون السويسرى ، ثم كلاما لم يفهم منه شيئا ، ولكنه أيقن بأنه لابد وان يكون خبرا مهما من بلده « الكويت » .

واتضح أن هذا الخبر ، هو ما أدى الى اغلاق صحيفته !.

وعاد رئيس التحرير الى الوطن ، ليقول : « كنت اتوقع من اخوانى واحبائى رؤساء تحرير الصحف القيام بالحد الادنى من الواجب .. تليفون مواساة ومشاركة ، ولا اريد ان أقول دعوة للكتابة فى صحفهم .. كما لااريد أن اقول كتابة كلمة تحمل معنى المشاركة المهنية للتعطيل .. ولكن أحبائى واخوانى رؤساء التحرير شاءوا مخالفة روح الاسرة التى سمعنا عنها كثيرا ، وعن وقوف الصديق مع صديقه فى الملمات والمشاكل ، وهو خلق الكويتيين ، وعاداتهم ، كما قرانا كثيرا فى الصحف .. أقول ـ فضل ـ الزملاء السكوت على المشاركة الهاتفية التى من المؤكد انها لم تكن لتصل الى المسئولين ، اذا كانوا خائفين !!

« واحد فقط كان وفيا .. وكان يمارس الاخلاق العربية والعادات الكويتية الصحيحة ، هو الزميل

« سامى المنيسى » . لك منى ألف شكر وتقدير ..
و « هاردلك » للطليعة » .

ولست أدرى كيف كان يتوقع « محمد مساعد الصالح » ان يقف معه زملاؤه واحباؤه رؤساء التحرير ، الذين لم يستطيعوا أن يقفوا - حتى - ولا مع انفسهم ! !

عن :
الفن .. والفنان

واحد من « جيل الرواد » .. يتكلم !!

عبد الحميد الحديدى .. واحد من عمالقة « جيل الرواد » فى الاذاعات العربية . بدأ حياته ، من اربعين سنة مضت ، مذيعا .. واخذ يترقى فى سلم هذا الفن الاعلامى الخطير ، درجة .. درجة ، حتى بلغ قمته .. بجلوسه على كرسى « مدير عام الاذاعة المصرية » . ولم يصل عبد الحميد الحديدى الى هذه « القمة » عدوا ، ولم يصل اليها قفزا . ولم يصل اليها والساحة أمامه مقفرة .. لريد رجلا ، أى رجل ، حتى ولو كان عاطلا من كل موهبة ، ومن كل كفاءة ، ومن كل قدرة على العطاء . وانما بلغ عبد الحميد الحديدى مابلغه ، وسط زحام شديد من ذوى الكفاءات ، والمواهب ، والقدرات الفذة على العطاء .

ولعل اكبر عيوب عبد الحميد الحديدى ، فى نظر البعض ، هى نفسها اكبر مزاياه : فهو حازم . وهو حاسم . وهو قادر ، فى اى وقت .. وفى كل وقت ، على أن يقول للاعور فى عينه : « انت اعور » . ومن اجل هذا ، كان هناك كثيرون يكرهونه .. ولكن الجميع ـ بما فيهم هؤلاء الذين يكرهونه ـ كانوا يقدرونه ، ويحترمونه ، ويحسبون له ألف حساب .

وفى حوار مع مجلة « روزاليوسف » ، موضوعه « انحدار مستوى المذيعين والمذيعات فى الاذاعة والتليفزيون » ، قال هذا العملاق من جيل الرواد ،

موضحا اسباب هذا الانحدار :

« .. فيما مضى » كانت لجان الاختبار لا تقبل لمهنة « المذيع » . الا من يصلح لها ثقافة ، وفكرا ، وصوتا ، واداء . كانت لجاننا متشددة بحق ، ثم صارت متهاونة . من غير حق . كان المذيعون ، فيما مضى ، نجوما في المجتمع بثقافتهم ، وبشخصياتهم المتميزة .. بولائهم لمهنتهم والحرص الشديد على التجويد فيها . ثم تغير ذلك كله . لم يعد الولاء للمهنة هو الذى يهم ، ولا هو المقياس للتقدم ؛ بل صار الولاء للمديرين ، ولتسابعي المديرين ، ولمن يحمى ظهر المديرين .. كما أن معيار رضاء هؤلاء الرؤساء لم يعد ـ كما كان فيما مضى ـ هو الحرص على المهنة ، والتفوق فيها .. بل أصبح المعيار هو مجرد « التبعية » لهم والولاء لاشخاصهم . فمثلا : هل هو ، أو هى ، ممن يجيدون التزلف ، ونقل اخبار الخصوم والشلل المنافسة .. ام لا ؟ وهذا اختبار بالغ الاهمية .!! ومن كثرة الناجحين فيه ، صرنا نسمع في الاذاعة .. ونرى فى التلفزيون .. تلك الاصوات المسطحة ، والوجوه المسطحة التى لايعنيها أن تتثقف ، ولا أن تجود فنها ، بقدر مايعنيها مناورات ارضاء المديرين .. فاذا ماظهر مذيع جديد له شخصية ، ويبشر عمله بالامل فى المستقبل « وهذا المذيع ، فى الغالب ، يكون له من الكرامة مايمنعه من التملق .. واللجوء الى « ظهر يحميه » ، فما أسرع مايطرد من جنة الاذاعة والتلفزيون .. غير ماسوف عليه ..!! وما اسرع مايختلق الاسباب ـ وهذا اهون الاضرار ـ التى تكتب عليه الا

يتقدم فى موقعه ، وان يبقى — الى ماشاء الله — فى الظل !! » .

***

انتهى كلام هذا العملاق من جيل الرواد فى الاذاعات العربية . فهل تقتصر « العاهات » التى « شخصها » — كاسباب مباشرة لانحدار مستوى المذيعين والمذيعات — على اذاعة ، وتلفزيون مصر وحدها .. ام ان هـــذه « العاهات » نفسها ، موجودة — نتيجة لتلك الاســـباب ولغيرها .. وبصورة أو باخرى — فى كل آذاعة عربية .. وفى كل تلفزيون عربى ؟.

أن الاصوات المسطحة ، والوجوه المسطحة ، التى نسمعها ونراها فى كل هذه الاذاعات والتلفزيونات .. تصرخ بأعلى الصوت : « انها ليست « عاهات مصـرية وحسب .. وانما هى ، للاسف الشديد ، « عاهات عربية » .. تكاد تعم كل الاذاعات العربية ، وكـل التلفزيونات العربية .. ومع ذلك ، فلا أحد يريد أن يقاوم .. ولا أحد يريد أن يصحح .. ولا احد قادر ، فيما أرى ، على أن يخلصنا من هذه « العاهات » .

الصراع على عرش أم كلثوم !!

الصراع على عرش أم كلثوم ـ قبل ان يمضى أكثر من اربعين يوما على غيابها ـ احتـدم اواره ، وتعـالت اصواته . !!

ولعل أسخف مافى هذا الصراع الذى دار بين أكثر من فنانة ، انه صراع بالكلمات !!. ولانه « صـراع بالكلمات » فسوف ينتهي ـ بالقطع ـ الى لا شيء . ذلك أن العروش ـ أية عروش .. ادبية كانت او فنية ـ لاتورث بالكلمات .. وانما تورث هذه العروش بالذات ، بالتعب ، وبالعـرق ، وبالاعـداد النفسى .. والفني القاسيين .. وقبل هذا كله ، بالموهبة الحقيقية التي تؤهل صاحبها للطمع فى وراثة العرش : عرش الادب .. او عرش الفن .

فأم كلثوم ، حين ورثت عرش « سلطانة الطرب . منيرة المهدية » ، لم ترثه بمجـرد الـكلمات .. ولا بمجـرد الادعاء بأنها قادرة على وراثة ذلك العرش. وانما استطاعت « أم كلثوم » .. الفلاحة البسيطة .. والذكية والعظيمة فى ذات الوقت ، أن تقتلع « سلطانة الطرب » من فوق عرشها بالتعب .. وبالعرق .. وبالعمل المضنى الذى أكد اصالتها ، واكد موهبتها ، واكد احقيتها فى اعتلاء العرش .. بينما كانت « سلطانة الطرب » نفسها ماتزال على قيد الحياة .. لم تفارقها !!

ان كثيرات من المتصارعات ـ بالكلمات ـ على عـرش

ام كلثوم .. لا يعرفن ، حتى الان ، كيف يختزن كلمات اغانيهن .. انهن يغنين اى كلام يقدمه لهن اى « بائع كلام » .. ولعلهن يفضلن « الارخص » !! وفي الوقت الذي يفعلن فيه المتصارعات ـ بالكلمات ـ هذا ، كانت « ام كلثوم » تتوقف كثيرا عند كلمة .. او عند جملة .. لواحد من اعظم الشعراء ، لانها اكتشفت ، بحسها الفنى الذى لا يبارى ، ان هذه الكلمة .. او الجملة .. غير قابلة للغناء ، فتتقدم على تغييرها بشجاعة .. وأيضـــا بذوق لا يجاريها فيهما أحد !!

لقد فعلت « أم كلثوم » ذلك مع كلمات لشوقى .. وفعلته مع كلمات لعمر الخيام .. وفعلته مع كلمــات لاحمد رامى . وكانت « ام كلثوم » دائما على حق .

واخيرا .. فسهل جدا أن يدعى اى انسان ـ حاصة اذا كان ممن يجيدون فن الحرب بالكلمات ـ « أحقيته » في وراثة أى عرش . ولكن ـ صـعب جـدا ان يثبت « جدارته » بوراثة ذلك العرش . فما بالك والعـرش هنا .. هو « عرش أم كلثوم » ؟!

ان المتصارعات ـ بالكلمات ـ على « عرش ام كلثوم » يذكرنى بمجموعة من « الغربان » تحاول بالنعيق .. وبالمزيد من النعيق .. أن تحتل مكانة « البلبل » .!!

فهل ذلك ممكن .. ؟ !!

فيروز فى القاهرة !!

اخيرا .. ذهبت « فيروز » الى القاهرة لتغنى فيها . وذهاب « فيروز » الى القاهرة مكسب لفيروز ، بقدر ماهو مكسب للقاهرة .. فلم يكن معقولا ، ولا مقبولا الا تلتقى « عاصمة الفن العربى » بصاحبة الصوت الملائكى الا من خلال تسجيلاتها . كذلك لم يكن معقولا ، ولا مقبولا ان تسجن صاحبة الصوت الملائكى نفسها وراء اسوار لبنان ، فلا تتركها ـ اذا تركتها ـ الا الى امريكا .. او كندا .!!

ان « فيروز » ـ بالاساس ـ حنجرة عربية ذهبية .. وهى صوت ، اقل مايقال فيه ، انه هابط من السماء .. والقاهرة هى عاصمة العرب جميعا . وذهاب «فيروز» اليها كان فى الصيف ، حيث يتجمع الاشقاء العرب من كل حدب ، وصوب . فاللقاء ، أذن ، لقاء مع العرب جميعا بين احضان القاهرة .. عاصمة العرب جميعا .

وفيروز ليست « غانية » تغنى بجسدها . كما أنها ليست « عارضة أزياء » تغنى بفستانيها . وانما « فيروز » صوت .. صوت معبق بالحب ، وبالسحر ، وبالخيال .. صوت يحملنا على ألف جناح الى عالم بعيد .. الى صخرة خضراء يتدفق منها نبع رقراق .. فنغتسل ونتطهر ونفيق .. ونلملم ، من جديد ، اشتات انفسنا التى ضاعت منا مع لظى الحياة .. او ضيعها لظى الحياة منا .

ان الرحلة « الفيروزية » الى القاهرة ، شيء كان يجب أن يتم من زمن بعيد . كان يجب أن يتم و « ام كلثوم » ماتزال متربعة فوق قمتها ، حتى لا يتقول المتقولون على صاحبة الصوت الملائكي بأنها جاءت الى القاهرة في محاولة لاعتلاء « القمة » التي خلت من صاحبتها .!

ولكن ... لا ضير على « فيروز » من مثـــل هـذه التقولات . فمن كان له سحر صوتها ، وعبقه ، وقدرته على التحليق بنا بألف جناح .. ليس طبيعيا أن يسلم من تقولات المتقولين . المهم هو أن تعرف « فيروز » كيف تحمي نفسها من أن « تجر » الى ذلك الصراع الدائر بالاظافر .. وبالانياب .. وبوسائل كثيرة اخرى ، غير الاظافر والانياب ، حول « القمة » التي خلت من صاحبتها .. من « أم كلثوم » .

ان « فيروز » سوف تذهب مرات .. ومرات الى القاهرة .. وهي صوت معبق بالحب ، وبالســـحر ، وبالخيال .. ولن يضيرها في شيء ان يقول المتقــولون عليها بأنهم اكتشفوا انها « مجرد ملاك يغني » .. وانها بلا اظافر .. ولا انياب !!

تمثال من الذهب .. لأم كلثوم !!

نحن العرب عاطفيون جدا .. عاطفيون الى الحد الذى يجرنا ، ونحن ندرى .. أو لاندرى ، الى الوقوع فى كثير من الشطط . من هذا الشطط الذى توقعنا فيه عواطفنا اقتراح قرأته فى احدى صحفنا .. تقدم به واحد من قرائها يحمل درجة « الدكتوراه » باقامة تمثال .. من الذهب .. لام كلثوم !!

وام كلثوم فنانة عظيمة مافى ذلك شك .. وهى جزء من أحزان العرب ، وافراحهم ، وذكرياتهم ، مافى ذلك شك ايضا . وتكريم ذكرى أم كلثوم — من هذه المنطلقات جميعاً — حق لها ، وواجب علينا . ولكن .. ان تصل بنا الرغبة فى تكريم ذكراها الى حد أن يتقدم مثقف يحمل درجة « الدكتوراه » باقتراح أن يقام لها « تمثال من الذهب » .. فهذا هو الشطط الذى ليس بعده شطط !!.

ولو أن هذا المثقف « الدكتور » كان قد احتكم الى عقله — قبل عواطفه — فيما ينبغى أن يفعل لتكريم ذكرى ام كلثوم ، لما سمح لنفسه بأن يقترح اقتراحا كهذا الذى اقترحه لتكريمها . أولا : لانه اقتراح متسم بالاغراق فى « العاطفة » .. وثانيا : لانه بعيد كل البعد عن « الموضوعية » التى يفترض فى « دكتور » مثله أن يلتزمها .. وان لا يقيم الناس الا فى ضوئها ، ومن خلالها .

فأم كلثوم ــ كما اتفقنا ــ قمة فى فنها قد لا يجود علينا الزمان بمثلها . وهى ــ كما اتفقنا أيضا ــ جزء من أحزان العرب ، وافراحهم ، وذكرياتهم . ولكنها ــ فى التحليل الاخير ــ ليست « جان دارك » .. وليست « غاندى » .. وليست « ديجول » .. وليست « ماوتسى تونج » .. واذا كانت الامم التى ايقظها هؤلاء الزعماء من رقاد ، وأحيوها من عدم ، لم تفكر فى ان تقيم لهم تماثيل من ذهب ، ولا حتى من فضة .. ولا من نحاس .. فكيف نفكر نحن أو بعضنا ، أو واحد منا ، بأن يطالب باقامة تمثال من ذهب لام كلثوم ؟!.

انها « العاطفة » كما قدمت .. وانه « الشطط » الذى تجر اليه « العاطفة » ، وليس فى مجال تكريم البارزين منا فحسب ، بل فى سائر المجالات .. ولو أننا أعتمدنا « الموضوعية » فى كل مانحس ، ونقول ، ونقرر ، لما وقعنا فى ذلك «الشطط» الذى كثيرا ما جعلنا سخرية الساخرين .. ولهم الحق فى أن يسخروا منا ماشاءت لهم السخرية ــ ماداموا يرون « دكتورا مصريا » ــ وسط الظروف الممعنة فى القسوة التى تمر بها مصر ــ لا يتردد فى أن يقترح اقامة تمثال من الذهب لام كلثوم .. وكأن مصر ، قد صار لديها من الذهب مالا تعرف ماذا تصنع به !! واذن .. فما المانع من أن تقيم منه تمثالا لام كلثوم ؟!!

هدية ابنتى !!

أهدتنى ابنتى هديتين : احداهمـا من السـماء ، والاخرى من الارض . الاولى كانت لوحة جميلة تتوسطها كلمة : « الله » .. وتدور حولها « آية الـكرسي » . والقرآن ــ اية سورة منه .. واى جزء من « سورة » .. واية « آية » ــ انما هو دواء ، وشفاء ، وأروع واحـة خضراء يمكن أن يهرع اليها الانسان المسلم ، كلما أراد ان يهرب للحظات .. أو لساعات .. او دائما .. من نيران الدنيا المحرقة .

وليس يستطيع أن يحس بذلك كله ، أو بشىء منه .. الا أولئك الذين يهدى ألله قلوبهم ، فيتذكرون القرآن ، ويتدبرون القرآن ، ويتأملون القرآن .. يتأملونه مبنى ، ويتأملونه معنى ، ويتأملونه قصصا ، وموسيقى ،وكلمات .. لو كان البحر مدادا لها ، لنفد البحر ولم تنفد كلمات ربى . ومصيبتنا نحن المسلمين ــ او الـكثرة الـكثيرة منا ــ اننا نلجأ ألى « الفاليوم » لكى نهدأ .. ونلجأ الى « الليبريوم » ننشد عنده الراحة لاعصابنا التى تسحقها الحياة اليومية بمطارقها القاسية .. نلجأ الى هذا ، والى ذاك .. بوعى او بلا وعى ، ولا نلجأ ألى القرآن .. على الرغم من أنه اسهل ، وعلى الرغم من انه أقـرب ، وعلى الرغم من أنه اقدر ــ ولا قدرة تستطيع ان تطاول قدرته ــ على شفاء مافى الصدور ..

***

اما الهدية الثانية التي أهدتني اياها ابنتي .. فكانت تسجيلا كاملا لموسيقى الاخوين « رحباني » . ولا أدرى كيف يمكن ان يكون شكل الدنيا بلا موسيقى ؟!

لاشك فى أنها كانت ستصبح قبيحة جدا ، وجافة جدا ، وحارقة جدا . فالموسيقى - فى دنيانا القبيحة هذه - هى ذلك الطائر الجميل الذى يحملنا على أجنحته الخضراء ، ويحلق بنا بعيداً .. بعيداً جدا .. عن قبح الدنيا ، وجفافها وحرقتها !

ولئن كانت الموسيقى - كلها - شيئا رائعا ، ورقيقا ، وجميلا . فلاشك أن « موسيقى الرحبانية » صنف من الموسيقى متفرد بمذاقه ، وبرقته ، وبجماله . انها بستان من الياسمين ، بكل شذاه وبكل رقته .. منتظم فى عقد من النغم يغسل قلبك ، ويغسل نفسك ، ويجعلك تحس وكأنك تستحم فى جدول حب ، او فى بحيرة ندى !.

ان أبنتى حين اختارت لى آية من القرآن .. هدية من السماء ، فانها كانت تعرف اباها .. تعرف حاجته العقلية ، والنفسية الى القرآن .. وعظمته .. وجلاله: مبنى ، ومعنى ، ودروسا تجعلك تثق بنفسك .. وبيومك وبغدك ، فلا قلق ولا خوف ، ولا ارتياع من شيء .. ولا قلق على شيء .

وهى ، حين اختارت لى « موسيقى الرحبانية » .. هدية من الارض ، فانها ايضا كانت تعرف اباها .. تعرف حاجته الى هذا البستان من الياسمين الذى انتظم نغما .. يجعلك تحس ، وانت تستمع اليه ، وكأنك تستحم فى جدول حب .. او فى بحيرة ندى .

الفنان والقناع !!

في الفن كما في السياسة .. الفنانون — معظمهم على الاقل — يرتدون « أقنعة » يتسترون وراءها ، ويتعاملون مع الناس والحياة من خلالها ، وكما أن كل شيء في « بحر السياسة » جائز ، فان كل شيء في « بحر الفن » وعند الفنانين — معظمهم على الاقل — جائز أيضا . فالابتسامة يمكن أن تكون عريضة ... والاحضان يمكن أن تكون واسعة .. والسؤال عن « الصحة .. وعن الاحوال » يمكن أن يكون ملحا ، وساخنا ، ومتواليا . لكن ذلك كله عند الفنانين—معظمهم على الاقل — كما هو عند رجال السياسة ، ليس من الضروري أن يكون مخلصا ، ولا صادقا ، ولا نابعا من القلب !! وانما هي « بضاعة للاستهلاك الوقتي » .. لمقتضيات الظروف والاحوال والمواقف !!

ومع أن « الفن » ، في أدق تعريف له ، هو : « الصدق » .. الصدق قولا ، والصدق عملا ، والصدق سلوكا . فان كثيرا من الفنانين — وقد عرفت منهم عديدين .. فيهم الكبير ، وفيهم الصغير .. فيهم الملك ، وفيهم الصعلوك — ليسوا ، للاسف الشديد ، بصادقين .. لا مع الناس ، ولا مع انفسهم ، ولا مع فنونهم !!

ولكن ... الى جانب الكثرة الكثيرة من الفنانين المزيفين ، توجد بلا شك قلة قليلة من الفنانين الحقيقيين .. الصادقين مع الناس ، ومع انفسهم ، ومع فنونهم .

فلقد كان « شوبان » ، مثلا ، فنانا حقيقيا . ولانه كان فنانا حقيقيا ، فقد رفض أن يعود الى بلده ـ بولونيا ـ طالما ظل ترابها أسيرا للاحتلال الاجنبى . لكنه لم يهرب من المعركة . بل عاش فى قلبها تماما . ظل يعزف من اجل بولونيا ، ويذكر الناس بها ، ويكسب لها ـ مع كل معزوفة يعزفها ـ صديقا جديدا ، ونصيرا جديدا .

وكان « بتهوفن » ، مثلا ، فنانا حقيقيا .. ولانه كان فنانا حقيقيا ، فقد رفض أن يلتزم جانب الطريق حتى يمر « امبراطور المانيا » الذى كان يستضيفه فى قصره !! وبينما التزم « جوته » الذى كان برفقتـــه فى تلك اللحظة ، جانب الطريق حتى يمر « الامبراطور » .. فقد رفض « بتهوفن » ان يفعل مافعله « جوته » !

كان « بتهوفن » يرى نفسه أكبر من امبراطور المانيا .. وبما أنه أكبر من « الامبراطور » . فكيف يلتزم جانب الطريق لكى يدعه يمر ؟!

ولم يكن « بتهوفن » مغرورا حين فعل ذلك .. بل كان « صادقا » مع نفسه ، الى أبعد حدود الصدق ، فى تقييم نفسه .. والدليل : أن أحدا من الناس لا يكاد يعرف من هو « الامبراطور » الذى حدثت معه هـــذه الحادثة .. ولكن أحدا ، فى الدنيا كلها ، لايجهل من هو « بتهوفن » .

لقد مات « الامبراطور » .. وجار الزمن على أسمه ، ورسمه .. بينما لم يستطع الزمن أن يدفن من «بتهوفن» الا جسده .. اما أسمه ، واما رسمه، فقد كانا، ولايزالان ـ وسيظلان ـ اقوى من الموت ، ومن الزمن ، ومن ذلك « الامبراطور » الذى لايعرف احد اسمه . !!

عندما يبالغ الشعراء !!

نزار قباني .. شاعر عربي عظيم .. ينثر الشعر زهرا له لون وطعم ورائحة . ولكن .. ان يقول « نزار قباني » انه استطاع ـ بشعره ـ ان يغير ملامح الشعب العربي .. فالى هنا ، ونختلف . ذلك لان الثابت ان شيئا من « ملامح الشعب العربي » ـ قبل ان يقول « نزار » الشعر .. وبعد ان قاله .. والى هذه اللحظة ـ لم يصبه ادنى تغيير . ان كل شيء ـ وهذا محزن واليم ـ ثابت في مكانه . فالصراعات هي هي .. والاثرة هي هي .. والاحقاد هي هي .. والاطماع هي هي .. و .. ولا جديد تحت الشمس !

ولو قال « نزار » انه « استطاع ـ بشعره ـ أن يسعد الناس » .. لكان صادقا . ولو قال « انه استطاع ـ بشعره ـ أن يطرب الناس » .. لكان صادقا . ولو قال أنه « استطاع ـ بشعره ـ أن يجعل الذين لم يكونوا يطيقون الشعر ، يسمعونه .. بل ويعشقونه » .. لكان ، أيضا ، صادقا . اما ان يقول انه « أستطاع ـ بشعره ـ أن يغير ملامح الشعب العربي » .. فتلك ولاشك « مبالغة » .. تجاوزت كل حدود « المبالغة » المسموح بها .. حتى للشعراء !!.

فباستثناء قصائد ثلاث .. او اربع .. أو خمس .. بدات بقصيدته الشهيرة التي نزف فيها دماء قلبه .. « هوامش .. على دفتر النكسة » ، فان شعر

هنا يأتي العجب من تحولها الى الكشف عن جسدها بعد رسوخ قدمها ، وارتفاع قامتها .. وقيمتها .!!

ان اللاتي بدأن حياتهم « نجمات اغراء » .. كهند رستم مثلا ، مالبثن أن تحولن ـ بعد مارسخت أقدامهن ـ الى الادوار الجادة التي تتفق وما حققته من نجاح ، وما صار لهن من مكانة .. وليس صحيحا أن « ... » تفعل ذلك من قبيل التهالك على جمع المال .. فما أكثر مارفضت من ادوار لانها لم ترضها ، او لم تقنعها ... واذن ، فما هو السبب الحقيقي وراء رضائها بالكشف عن نصف جسدها .. وربما اكثر ؟!

الجواب محير .. ولا أحد غيرها يعرفه .

« نزار » كله يكاد ان يكون غناء : غناء للحب .. وللمرأة .. « ولاجزاء بعينها » من جسد المرأة .. وتكاد اربعة اخماس السنوات الثلاثين التى استنفدها « نزار » فى قول الشعر ، ان تكون قد استهلكت فى هـذا اللون من الغناء ..

وليس يعيب « نزار » أن يكون ذلك رصيده . فليس مطلوبا من الشاعر — اى شاعر — ان يكون « زعيما » .. وليس مطلوبا منــه ، أيضـــا ، ان يكون « مصـــلحا اجتماعيا » .. فما أكثر الذين يستطيعون — وبصورة .. أو بأخرى — ان يكونوا « مصلحين اجتماعيين » . ولكن قليلين جدا اولئك الذين يستطيعون ان يكونوا « شعراء ». وأقل منهم ، ولاشك ، الذين يستطيعون أن يكونوا « نزار قبانى » .

الممثلة العظيمة .. لماذا تتعرى ؟

صارت « ... » ممثلة عظيمة . هذه حقيقة فنية قائمة ، لا خلاف عليها . ولانها صارت ممثلة عظيمة ، فلم يعد مقبولا منها أن تظهر فى الافلام السينمائية وقد كشفت عن نصف جسدها .. وربما أكثر !!

ان هذا شيئا تفعله ، عادة ، العاطلات من المواهب ، انهن يعتمدن على اجسادهن لتكون بديلا عن مواهب لا تتوفر لهن . ولكن ، ان تكون الممثلة موهوبة .. وان تكون متعددة القدرات مثلما أن « ... » متعددة القدرة على أداء كل لون ، وكل دور ، فان الامر هنا يصبح مثيرا للدهشة .. بقدر ماهو مثيرا للتساؤل . وأيضا للعتب على الممثلة التى صارت « عظيمة » ، ولكنها لا تستطيع مع ذلك ، أن تحمى نفسها .. ولا جسدها .. من مطالب المخرجين أو المنتجين .!!

ولقد يقال لها .. أو لنا ــ دفاعا عنها ــ أن « مارلين مونرو » كانت هى أيضا « ممثلة عظيمة » ، ولم يمنعها ذلك من أن تكشف عن جسدها فى معظم أفلامها .. بل لعلها ظلت تكشف عن هذا الجسد الى أن ماتت .!

غير ان الذين قد يقولون لنا ذلك ــ دفاعا عن « ... » ــ ينسون أن « مارلين مونرو » بدات حياتها « نجمة اغراء » .. ولعلها قد انهت حياتها وهى لاتزال كذلك .!!

أما نجمتنا هذه ، فلم تبدأ الطريق كنجمة اغراء . بل بدأته فى فيلمها الاول « فلاحة مصرية صميمة » . ومن

الفنان .. والثناء !!

الفنان : روائيا كان ، ام شاعراً ، أم كاتبا ، ام موسيقيا ، ام رساما .. لا يستطيع ان ينمو ، ولا ان يزدهر ، ولا ان يعطى .. فيجزل العطاء ، بعيدا عن احساس الجماهير به ، وتجاوبهم معه ، واشعاره ـ عن طريق هذا الاحساس به ، والتجاوب معه ـ انه لا يحرث فى البحر .. ولا يصرخ فى الصحراء .

ان كلمة ثناء واحدة أو عبارة اعجاب واحدة يسمعها الفنان .. تفعل بنفسه فعل السحر ، وتفجر فى اعماقه ينابيع جديدة .. ينابيع كثيرة .. ماكانت لتنفجر فى أعماقه ، لو أنه وقع تحت الشعور بانه يحرث فى البحر ، أو يصرخ فى الصحراء !

ومن هنا .. كانت سعادتى كبيرة ، وعميقة حين جاءنى ـ عبر الهاتف ـ صوت الاديب الكبير .. الطيب صالح، مدير الاعلام فى قطر ، حاملا الى ثناء المحب .. واعجاب الفنان .. بما أكتبه تحت عنوان « رحلة .. فى أسرار الامس » . ومع أن ما اكتبه ، تحت ذلك العنوان ، ليس « فنا » ـ بالمدلول الدقيق ـ لكلمة « فن » . وانما هو مزيج من التاريخ ، والسياسة ، الا ان الفنان الحقيقى ، على الجانب الاخر من « الهاتف » ، جعلنى أشعر وكاننى اكتب « فنا » .

ولم يزعجنى ـ وسط ثنائه المحب على ما اكتب ـ قوله « انه كان يقرأ لي من ثلاثين سنة » !! فلقد بدات

اكتب حين كانت سني أثنتين وعشرين سنة . ولا أدري كم كانت سن « الطيب صالح » وقتها .. فربما كانت اكبر ، وربما كانت أصغر . ولكن المؤكد أنه ماتزال أمامه سنوات طويلة قبل أن يبلغ « سن التقاعد » . وان كانت الحقيقة انه ليس ثمة « سن التقاعد » بالنسبة للفنان . فالفنان الاصيل ، كالنهر الاصيل .. تشرق عليه الشمس وتغرب .. وتجيىء الايام وتروح .. وهو مستمر فى عطائه ، مستمر في تدفقه ، مستمر فى احتفاظه ببسمته الساخرة من شروق الشمس وغروبها ، ومن مجيىء الايام ورواحها . ولعلها ليس صدفة أن يكون «الفنان الحقيقي» عبر الجانب الاخر من الهاتف ، واحداً من أبناء « منبع » ذلك النهر الاصيل ، العظيم .. نهر النيل .. المتدفق بالعطاء دوما ، المتدفق بالحياة دوما .. كأى فنان معتق .. واصيل .

فارس حقيقي !!

لم اكن قد رأيته ، ولا آلتقيت به ، قبل هذه المرة التى رأيته فيها يدخل على بيتى مواسيا .. بمناسبة ذكرى الاربعين لوفاة ابنتى . جاء فى الوقت الذى كان فيه المواسون الآخرون قد أخذوا فى الانصراف ، فبدأ كلامه معي بالاعتذار عن تأخره .. فقد مضى عليه أكثر من ساعتين وهو يدور في كل احياء مصر الجديدة ، بحثا عن بيتى الذى لم يكن يعرفه من قبل . احسست برجولته تحمله ، فورا ، الى حنايا قلبى الذى كان ينزف دما .. فانا ، كما اسلفت ، لم أكن قد التقيت به ، ولا عرفته ، ولم تتعد علاقتى به سطورا عشرة كتبتها ، فى زمن ما ، محييا واحدا من مواقفه الرجولية التى لا تحصى .. ولا تعد .

ومن حيث لا ادرى .. وجدتنى اقارن بينه وبين موسيقار كبير جدا .. ويقولون عنه أنه « ذكى جدا » . كان يدعوننى الى مائدته ــ حين كنت في دائرة الضوء ــ سبع مرات فى الاسبوع .. وكنت أعتذر عن دعوته ست مرات ، واقبلها مرة ، من باب الخجل . ولما دخل اخى ألكبير المستشفى لاجراء عملية جراحية ، وعلم « الموسيقار الكبير جدا » بذلك ــ وكنت ما أزال فى دائرة الضوء ــ ارسل الى أخى الذى لم يكن يعرفه .. ارسل اليه على المستشفى باقة ورد فاخرة جدا .. لابد انها كلفته الشيء الكثير !!. فلما دارت الايام ، و

« السلطة » الى « دائرة الظل » ، نسيني « الموسيقار الكبير جدا » الذى كان يحدثنى تليفونيا مرة .. واثنتين .. وثلاثا فى اليوم الواحد ـ نسينى الى حد انه حين توفيت ابنتى التى جاءنى الفارس الحقيقى « أحمد مظهر » ـ على غير معرفة سابقة ـ مواسيا فى وفاتها .. لم يتفضل « الموسيقار الكبير جداً » بأن يرسل لى برقية عزاء !! ..

ان الفرق بين « احمد مظهر » ، وبين « الموسيقار الكبير جدا » .. هو أن الاول « فارس .. حقيقى » بينما الثانى « تاجر .. تاجر حقيقى .. والفرق بين اخلاق « الفرسان » واخلاق « التجار » هو ... لا .. لن اقوله ، حتى لا اغضب التجار .

عن :
شخصيات من
هنا ومن هناك

دموع الرجال !!

فى لحظة .. اصبح أقوى رجل فى العالم ، هو اضعف رجل فى العالم .. تخلت عنه قواه ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وخانته الكلمات .. فلم يستطع ان يكمل « كلمة الوداع » التى كان بسبيل توجيهها الى امته التى خلعت عنه ثقتها ، ومنحتها لرجل غيره !!

كانت صورته ، فى تلك اللحظة ، تمزق القلب ... وليس هناك ماهو اشد تمزيقا للقلب من رؤية « رجل يبكي » .. ربما لان البكاء ليس من شيم الرجال .

لقد كانت هذه هى المرة الثانية التى احسست فيها بقلبى يتمزق ، من اجل « رجل قوى ». ألمت به لحظة ضعف ساحقة . أما المرة الاولى ، فكانت تلك التى رأيت فيها « عبد الناصر » ، وهو يعلن من على شاشة التليفزيون ، تنحيه عن الرئاسة .. كرد فعل طبيعى للهزيمة القاسية التى حلت به فى حرب لم يكن يتوقع منها الا أعظم الانتصار .

وعلى الرغم من انني ، فى ذلك الوقت ، كنت مختلفا مع « عبد الناصر » .. وعلى الرغم من أننى كنت معزولا عن ساحتى بأمر شخصى منه ، قبل سنتين من تلك الهزيمة ، الا أننى ، مع ذلك ، احسست بقلبى ينزف من أجله .. فلم تكن صورة ذلك « الجبل الشامخ » ، وهو يخر صعقا ، بالصورة التى يستطيع اى قلب ، حتى لو كان من حجر ، الا ينزف من اجلها .

ولقد كانت تلك هي نفس مشـــاعري تجاه الرئيس الامريكي السـابق « جيرالدفورد » حين رأيته ، على شاشة التليفزيون ، عاجزا عن ان يملك نفسه من البكاء . لحظتها لم أر فيه صورة رئيس دولة لا أحمل لها ـ كعربي ـ الا نفس المشاعر التي يحملها لها كل عربي ، ويعـرف فيها « القوة » التي تعمل على ضرب وحدتنا وتفـريق كلمتنا .. كلما سنحت لها الفرصة لتفعل ، وانما الذي رأيته في « جيرالد فورد » ، في تلك اللحظة ، هـــو صورة « الرجل القوي » بل « أقوى رجل في العالم ـ بحكم الدولة التي كان يرأسها ـ وهو يتهاوى تحت مطارق الهزيمة ، فلا يملك الا « الدموع » يعبر بها ، عن احساسه

انها للحظة سعيدة ، بلا شك .. والى أبعد حدود السعادة ، تلك التي يستطيع فيها انسان ما أن يجلس فوق اعلى قمة في بلاده . وبالمقابل فانها للحظة تعسة ، أشد ماتكون التعاسة .. تلك التي تسقطه فيها ظروف خارجة عن ارادته .. من فوق القمة نفسها .. فـــلا يملك ، ساعتها ، الا أن يبكي .. على الرغم من أن البكاء ليس من شيم الرجال .

المرأة .. وجحر الافاعى !!

الذى حدث فى الصين لارملة « ماو » بعد وفاة زوجها .. والذى حدث قبله فى الارجنتين ، لايزابيلا بيرون .. والذى حدث فى « الهند » لانديرا غاندى .. جدير بأن يقنع النساء — كل النساء — بأن السياسة « لعبة قذرة » .. وأنهن لسن مهيئات ، بطبيعتهن .. وأيضا بطبائعهن ، للخوض فى هذه « اللعبة القذرة » التى يقدر عليها « بعض » الرجال .. وليس « كل » الرجال .

لقد نجحت الطبيعة فى أن تشحن المرأة بقدرات هائلة على العطاء . ولكن ، ليس فى مجال الحرب . ولا فى مجال السياسة .. وانما فى مجال البر ، وفى مجال الخير ، وفى كل مجال يحتاج فيه الانسان — كانسان — الى الكلمة الحنون ، والى اللمسة الحنون ، والى العطف الدافق يحفظ له قواه ، ويمسك عليه نفسه ، ويعينه على المشي فوق أشواك الحياة .

صحيح أن للسياسة أضواءها الباهرة .. وصحيح ان المرأة .. اية امرأة .. وكل امرأة — انما هى « فراشة » تعشق الاضواء ، وتحب أن تلقى بنفسها ، وبكل مالديها من حماسة ، فى قلبها .. دون أن تقيم أى اعتبار الى أن هذه الإضواء قد تسلبها ، فى لحظة ، بصيرتها .. وبصرها .. بل وكل حياتها .!! الا ان المرأة ، مع ذلك ، ما ينبغى لها أن تجهل .. ولا ان تتجاهل .. ان « عالم

السياسة » ليس سوى صورة أخرى من « عالم الافاعي» .. الكبير فيه يلتهم الصغير ، ولا يستطيع أن يصمد في غذا « العالم المفزع » الا فريق من الرجال هم أقرب مايكونون الى فصيلة « القطط المتوحشة » التى لا تتردد فى ان تقتل .. لكى تعيش !!.

لقد كانت المرأة ، وما تزال ، ولسوف تظل ، محتاجة لمن يحميها .. لمن يفرد عليها جناحه .. لمن تقف وراءه ، وتتركه يزود عنها الازمات ، والاخطار ، والعواصف .. الا أنه في « عالم السياسة » لا أحد يستطيع ان يحمي المرأة من كل هذا .. لا إحد يستطيع ان يدفع عنهــا السجن ، او النفى ، أو الحكم بالاعدام .. بل أنها سوف تفاجأ بأن الجميع قد تخلوا عنها ـ هذا اذا لم تفــاجأ بأن الجميع قد انقلبوا عليها .. وتركوها لقدرها تواجه ـ بمفردها ـ مصيرها .. وتتحمل ـ بمفردها ـ نتــائج الزج بنفسها في .. « جحر الافاعي » !!

وما أرملة « ماو » .. وانديرا غاندى .. وايزبيلا بيرون ، الا امثلة .. مجرد امثلة على مااقول .

ليت شبابنا يفعلها !!

على أمتـداد يومين متصلين ـ شهدت احدى قاعات « مطار شارل ديجول » بفرنسا ، أجتماعا تاريخيا حضره اكثر من خمسة آلاف شاب فرنسي من اعضـاء « تجمع الشباب الديجولي » . لم يرفع الشباب في هـذا الاجتماع اصواتهم بالهتاف ضد احد .. ولم يلوحـوا بقبضاتهم الشابة في وجه أحد ، ولم يتطاولوا على احد ولم ينتقصوا من قدر احد . فلقد أعطوا « اجـازة » لقواهم كلها ـ عدا عقولهم ـ فانها وحدها آلتى كان عليها تحضر هذا الاجتماع ، وهي وحدها التى كان عليها ان تتكلم .. وهي وحدها التى كان عليها أن تخطط ، وتفكر ، وتدبر . ذلك لانهم اجتمعوا من اجل هدف مسـتقبلى ، ووطني، ونبيل .. اجتمعوا من اجل أن يحددوا « صورة فرنسا .. كما يريدون أن يروها في سنة ٢٠٠٠ » ، بعد أن كانوا قد كونوا ـ للهدف نفسه ـ لجانا بلغ عدد افرادها ٥٧٩ شابا وشابة ، تحت سن الخامسة والعشرين واختصت كل لجنة يبحث موضوع معين .. ابتداء من تلوث ألبيئة الى السياسة الخارجية لكرنسا ، عن طريق اجراء الابحاث ، وألدراسات الميدانية .. مسـتفيدة في ذلك بالعلماء ورجال الاقتصاد ، والمفكرين ، والفنيين في كل الموضوعات التى تصدت هذه اللجـالن لدراستها وبحثها .

ويعبر « الشباب الديجولى » عن همومه هذه ، ببساطة شديدة .. وايضا بعمـــق شـديد . انهم يقولون :

« **المستقبل هو حياتنا نحن ، وليس حياة الجيل الذى يتولى السلطة الان .. ومن ثم ، فمن العبث أن يقـوم الكبار ــ وحدهم ــ باية محاولة لتحديد صورة المستقبل .. ذلك لانه مستقبلنا ، وليس مستقبلهم** » .

فما أحوج شباب أمتنـــا العربية ــ من المحيط الى الخليج ــ الى التفكير الجدى فى مستقبل بلادهم سنة ٢٠٠٠ ، بهذا الاسلوب .. وبهذه الطريقة التى فكر بهـا « الشباب الديجولى » فى مستقبل فرنسا ، فمهما يكن من أمر المشكلات التى تعترض طريق « مستقبل فرنسا » .. فانها ، فى اول الامر .. وفى آخره ــ أمة متقدمة ، وتستطيع ــ بتقدمها ــ التغلب على أكثر مشكلاتها . اما نحن .. فكلنا امم نامية . وكلنا لنا من المشكلات فى الحاضر ماينبىء بأن المستقبل سوف يكون مروعــا ، ومفزعا .. فهل يتحرك شبابنا العربى ، فى كل أمتنـــا العربية ، الى شىء كهذا الذى تحرك اليه « الشـباب الديجولى » فى فرنسا .. ويحاولوا ــ مستعينين بخبرة الخبراء وبفكر المفكرين ــ أن يشاركوا فى رسـم صورة المستقبل الذى هو ــ باليقين ــ مستقبلهم .. وليس مستقبل احد من أولئك الذين يحكمون ؟.

عندما يقول القدر : كفى ..!!

فى رأى المؤرخ الالمانى العظيم .. « اميل لودفيج » .. ان « نابليون » لم يهزمه أحد .. لم يهزمه قائد ، ولم تذهب بمجده معركة . وانما الذى هزم « نابليون » ـ فى رأى « لودفيج » ـ هو « القدر » الذى ضاق ذرعا بانتصاراته ، فرفع يده فى وجهه قائلا : « كفى » .. وكانت « كفى » هذه ، هى القاضية !!.

قفز هذا الرأى الى خاطرى . وانا أقرأ أخبار تلك الجلطة الدموية التى أصيب بهـا بطل الابطـال « محمد على كلاى » فى احدى ساقيه ، نتيجة لمباراته السخيفة ، والتى لم يكن لها طعم ولا مبرر .. مع المصارع اليابانى « اينوكى » .

فهل هو « القدر » ، مرة أخـرى ، يضيق ذرعـا بانتصارات « محمد على » فيرفع يده فى وجهه ، كمـا رفعها من قبل فى وجه « نابليون » ، قائلا : « كفى » .؟

ذلك وارد . فلقد قالت التقارير الطبية عن حـالة « بطل الابطال » : أن ساقيه لن تعودا الى حالتهمـا الطبيعية ، بعد ذلك الذى أصابهما فى تلك المباراة التى لم يكن لها طعم ، ولا مبرر . الا أن يكون « القدر » هو الذى أرادها لتضع حدا لانتصارات « محمد على » التى لعله ـ اى القدر ـ قد ضاق بها ذرعا .. بعد اذ رأى أنها طالت وتعددت .. وتجاوزت حدود الانتصار المسموح بها لرجل واحد .. فى زمن واحد .

على كل حال .. هذا وجه من وجهى الصورة .. أما ألوجه الآخر ، فهو أن يكون « القدر » ، مثلنا ، منحازا لمحمد على .. ولا يريد له أن يهزمه ملاكم ، ولا ان يرديه وانما ليصيبه بما أصابه ، فيحمله على الاعتزال .. دون أن يتجرع مرارة الهزيمة ، ودون أن يسقط اكليل المجد من فوق رأسه .

الا ليت « بطل الابطال » يستجيب لاشارات «القدر» .. ويفعلها .. فيظل محتفظا ـ والى الأبد ـ باكليل المجد فوق رأسه (١) .

«١» لم يرد « كـــلاى » ان يتفهم اشارة القدر هذه ، او لعله لم يفهمها .. فكانت النتيجة انه استمر .. واستمر .. حتى خسر على « حلبة الملاكمة » ، مايمكن اعتباره اعظم اكليل مجد توج راس بطل .

الرجل والاسطورة !!

ـ مات آخر عمالقة الحرب العالمية الثانية .. الفيلد ماريشال مونتجمري .. أو « لورد اف علمين » ـ حسب اللقب التكريمي الذي منحته له بلاده . عرفانا ، وتقديرا لنجاحه في هزيمة « ثعلب الصحراء .. الفيلد ماريشال رومل » ـ بعد أن كان هذا قد هزم في معركة الصحراء الغربية المصرية ، اربعة من اعظم قادة بريطانيا .. هم على التوالي : الجنرال ويفل .. والجنرال ولسون .. والجنرال ريتشي .. والجنرال أوكلنك .

ونتيجة لهذه الانتصارات المتوالية من جانب « ثعلب الصحراء » .. والهزائم المتوالية من جانب القادة الانجليز .. صار الرجل .. « رومل » ـ صار «خرافة » نفذت بسحرها الى نفوس جنود « الجيش الثامن البريطاني » ـ وهو الجيش الذى كان عليه أن يتصدى لمقاتله رومل ـ وسيطرت على مشاعرهم ، وجعلتهم يلقون بأسلحتهم .. ويولون مدبرين كلما سمعوا ـ أن صدقا .. وان كذبا ـ ان « ثعلب الصحراء » قد ظهر فى الميدان معتليا دبابته !!

ومن هنا .. كان الهم الاول « لمونتجمرى » ، حين وصل الى الصحراء لقيادة قوات الجيش الثامن ، أن يستل من نفوس جنوده ذلك « السحر » الذى استطاع « رومل » ان ينفذ به اليها .!!

ولم تكن المهمة سهلة . فبعد انتصارات فى عشرات

المعارك .. وبعد هزيمة أربعة من المع قادة بريطانيا فى هذه المعارك .. كان لابد لروميل من أن يتحــول الى « أسطورة » تسيطر بسحرها على عقول جنود بريطانيا .. وتتسلل الى نفوسهم حتى النخاع !!

ويكفى لكى تقدر مدى الصــعوبة التى واجههــا « مونتجمرى » ، وهو فى طريقه الى القيام بهـــذه المهمة ، أن تعرف أن جنوده ـ جنود الجيش الثامن الذى ذهب الى الصحراء ليتولى قيادته ـ كانوا يعلقون ، داخل خيامهم ، صور « ثعلب الصحراء .. روميل » وليس ثمة صورة اخرى .. لاى قائد آخر من قادة بريطانيا .!!

نجح الرجل فى تطهير نفوس جنوده من ذلك « السحر » . وبعدها .. استدار « لثعلب الصحراء » .. ودخــل معه فى معارك متعددة .. معركة تلو معركة .. تكللت جميعها بالانتصار .. وبدأ نجم « مونتى » ـ وهو اسم التدليل الذى اطلقه عليه جنوده ـ بدأ يدخل مرحــلة التألق .. بينما أخذ نجم « روميل » يدخل مرحـــلة الافول .. حتى حلت الساعة التى استطاع فيها خصمه أن يمحقه تماما فى معركة « العلمــين » التاريخيــة الشهيرة .

وهكذا .. ولد ذلك المجد العظيم الذى صار جــزءا لايتجزأ من اسم الفيلد ماريشال مونتجمرى .. أو « لورد أف علمين » .. لكن هذا المجد العظيم لم يكن له أن يتم الا على حساب زوال مجد عظيم اخر .. هو مجد « ثعلب الصحراء .. « روميل » فهذه هى طبيعة المعارك .. وهذه هى طبيعة التاريخ بل هذه هى طبيعة الحياة نفسها .. منذ الازل والى الابد . صعود وهبوط ، وتوهج وافول .. وليس ثمة شىء دائم ، وليس ثمة شىء مستحيل . !!

الحب أولا .. والحب أخيرا .. !!

ستون الف جنيه استرلينى « !! » دفعتها شخصية عربية ، ثمنا لسيارة واحدة .. مصممة تصميما خاصا. وابرز مافى هذا « التصميم الخاص » انها - اى السيارة - مزودة بمدفع رشاش يعلو سطحها .. وانها صنعت من صاج مصفح لايخترقه الرصاص .!!

والانسان الذى يقتنى سيارة هذه هى أبرز خطوط تصميمها ، انما هو انسان يعلم - تماما - انه بغيض الى قلوب شعبه ، اذا كان حاكما .. وبغيض الى قلوب المحيطين به ، اذا لم يكن كذلك .!

وانسان كهذا ، يستحيل أن تزيده مثل هذه التصرفات الا بغضا على بغض ، ولن تجر عليه الا مزيدا من النقمة . أن « المدافع الرشاشة » .. و « السيارات المصفحة » .. لو كانت قادرة على ان تحمى احدا ، لكانت قد حمت « جون كنيدى » من القتل .. ولم يكن - كما جميعنا يعرف - بغيضا الى قلوب من كان يحكمهم ، كما أنه لم يكن بغيضا الى قلوب المحيطين به ، ولم يفكر هو - نفسه - فى أن يزود سطح سيارته الخاصة بمدفع رشاش .!!

ان « الحب » - وليس « المدفع الرشاش » .. ولا « السيارة المصفحة ضد الرصاص » - هو الذى يحمى الحاكم .. اى حاكم .. لكن هذا « الحب » لن يتاتى لاى حاكم الا عن طريق « العدل » .. « العـــدل .. الذى

يستهدف قضايا الشعوب ويستمد قوته ، وعظمته من التفاعل الحقيقي – وليس المظهرى – مع آلام هـذه الشعوب وآمالها ، ومتاعبها ، وجراحها .

والانسان الذى يقبل على نفسه أن يقتطع من اموال شعبه ، ستين الف جنيه استرلينى .. يدفعها ثمنا لسيارة لا يخترقها الرصاص .. لا يمكن ان يكون انسانا عادلا .. ولا يمكن ، بالتالي ، ان يحظى من شعبه بذرة من « الحب » الذي يستطيع ان يقوم ، في حمايته ، مقام « المدفع » .. ومقام السيارة التى لا يخترقها الرصاص .

ان بعض الحكام يخدعون انفسهم خداعا بغير حدود عندما يتصورون انهم يستطيعون أن يحكموا شعوبهم « بالمدافع » من دون « الحب » .. وهم يخدعون أنفسهم خداعا اكبر ، واكبر ، عندما يتصورون أنهم يستطيعون أن يفوزوا بالحب ، دون أن يترسموا طريق « العدل » .. ولو انهم علموا أن طريق « الحب » الناشىء – بالضرورة – عن « العدل » ليس صعبا ، لوفروا على انفسهم ، وعلى شعوبهم ، كل درهم يدفعونه ثمنا لسيارة مصفحة ، أو لمدفع رشاش ، يتوهمون انه سوف يحميهم مما لن يحميهم منه شيء آخر غير الحب .. وغير العدل .

المحارب بالسيف .. وبالكلمة .. !!

كان الرجل عظيما بشكل غير عادى . كان ينظر الى وجهه فى المرآة فيرى فيه صورة « فرنسا » .. وكان ينظر الى صورة « فرنسا » فيرى فيها وجهه هو ... وجه « ديجول » !!

ولان الرجل كان عظيما بشكل غير عادى ، فكان قليلا عدد الرجال الذين كان يحترمهم .. واقل منهم عدد الذين كان يحبهم .. واقل من هؤلاء وهؤلاء ، عدد الذين كان يحبهم ويحترمهم .. ولقد كان « أندريه مالرو » ، المفكر الفرنسى العظيم ، ووزير الثقافة فى حكومة «ديجول» والذى رحل عن دنيانا فى نوفمبر سنة ١٩٧٦ . واحدا من تلك القلة النادرة من الرجال الذين كان « ديجول » يحبهم .. ويحمل لهم ، فى ذات الوقت ، أعظم الاحترام .

((الى يمينى .. كان يجلس ، دائما ، ((اندريه مالرو)) .. وزير الثقافة .. وكان وجود هذا الصديق الذى يضم بين جوانحه قلبا ملتهبا كقلوب اصحاب الرسالات ، الى جانبى .. يجعلنى اشعر بان ثمة ((مظللة)) من الافكار تظللنى ، واستطيع ، دائما ، ان الوذ بها . وعندما كانت المناقشة تحتدم حول موضوع خطير ، كنت اثق بان رايه الذى يلمع فجاة مثلما يلمع البرق .. سوف يساعدنى ، حتما ، فى تبديد اكثر الظلام ، ان لم يكن كل الظلام ، من امام عينى)) !! .

لقد قاتل « مالرو » ، فى سبيل الحرية ، بقلمه .. وعندما تصور أن القتال « بالقلم » لم يعد يكفى .. لم يتردد لحظة فى ان يحمل السلاح .. علق بندقيته فى كتفه ومضى الى اسبانيا ليقاتل فى صفوف الثوار ضد الزحف الفاشى .. وهناك ، جرح ١٤ مرة .. وأسر أكثر من مرة .. ولكنه كان يبرأ من جراحة ، ويهرب من أسره ، لكى يعود فيمتشق السلاح .

ثم وضع « مالرو » قلمه جانبا ، مرة أخرى ، ليحمل السلاح جنديا فى فرق المقاومة الفرنسية ضد الزحف النازى على بلاده .. وانتصر الرجل مع المنتصرين .. وكان طبيعيا ، بعد ذلك ، ان يصبح وزيرا للثقافة فى حكومة المنتصرين .. فيجلس ، دائما ، الى يمين « ديجول » .. وتلمع أفكاره كالبرق ، فتبدد الظلام من حول الرجل الذى كان ينظر الى وجهه فى المرآة ، فيرى فيه صورة « فرنسا » !

ما اروع ان يصبح رجل واحد ــ من خلال كتاباته وافكاره وكلماته .. وليس من خلال ملايينه وثرواته ــ خبرا تذيعه كل أذاعات العالم .. باعتباره ــ حيا .. وميتا ــ شيئا يهم العالم .. كل أركان العالم .

مصيبة الانسان الكبرى .. !!

« مصيبة الانسان الكبرى ، فى رأيى ، هى عجزه المزرى عن الاتعاظ » ..

قفزت هذه الحقيقة الى خاطرى ، بينما كنت اتأمل صورة صلاح نصر .. « ملك التعذيب فى مصر » .. وهو قابع فى « قفص الاتهام » كأسد حطمت أنيابه .!! فلا احد كان يتوقع ، او يتصور ان هذا الذى حدث .. كان من الممكن أن يحدث . لكن الايام تدور ، وتحمل معها ــ وهى تدور ــ كل غريب ، وعجيب .!! انها تسقط ملوكا من فوق عروشهم ، وتأتى بآخرين ربما من آخر الصفوف ــ لتجلسهم فوق العروش التى هوى أصحابها .. ترفع قوما الى السماء ، وتهوى الى الحضيض بآخرين كانوا فى السماء من ساعات او لحظات .. وكانت مصيبتهم انهم كانوا يعتقدون انهم سيظلون محلقين فى السماء ، الى ان تفنى الارض .. وما عليها .. ومن عليها ..

فما حدث لصلاح نصر ، وما حدث لاقرانه ، واترابه .. حدث مثله وبالضبط لآخرين قبلهم . كانوا ملوكا غير متوجين .. وكانوا ، من وراء الستار ، يحكمون الملوك المتوجين .. ولانهم كانوا يحكمون هؤلاء الملوك ، فقد اخذتهم العزة بالاثم . ومضوا يتعاملون مع الاخرين ، ويعاملون الاخرين .. وكانهم حشرات ، أو ربما ادنى .!! ثم مالبثت الايام أن دارت عليهم .. فاذا بهم يسقطون من فوق عروشهم .. وآذا بهم يحاكمون ويسجنون ..

او يفرون هاربين من وجه شعوبهم .. الى حيث لايد تصافحهم .. ولا مخلوق يرحب بهم !

ولان « صلاح نصر » .. واقرانه واترابه .. هم الذين حاكموا أولئك الملوك ، غير المتوجين ، واعتقلوهم وسجنوهم فقد أصابتهم « مصيبة العجز عن الاتعاظ » .. وظنوا ان الدنيا قد دانت لهم .. وأنها ـ أبدا ـ لن تدور بهم او عليهم .. لكنها ـ وهذا هو قانونها الازلى الذى لن يتغير أو يتبدل ـ دارت ، ودارت ، ودارت .. وكل ماهنالك انها صبرت عليهم حتى وصلوا الى أعلى عليين .. حتى صاروا ملوكا يفترشون الحرير ، ويمشون على الحرير ، يلبسون ماهو أطيب من الحرير .. واغلى من الحرير !! ثم .. ثم القت بهم من شاهق .. فدقت أعناقهم ، وتحطمت عظامهم ، وأصبح سلطانهم كله ، مجدهم كله ، عظمتهم الكاذبة كلها .. مجرد هشيم اذرته الرياح .!!

ولكن .. هل انتهت المصيبة ..؟ أعنى .. هل انتهت مصيبة الانسان الكبرى . المتمثلة فى عجزه عن الاتعاظ ؟

لا اظن ..

فمازال هناك كثيرون .. وكثيرون .. من طراز « صلاح نصر » .. واقرانه ، واترابه .. ومازالت مصيبتهم هم نفس مصيبته .. أنهم لايريدون أن يتعظوا بما وقع له .. ولا بما وقع لغيره من اشباهه واقرانه .. فتراهم يصممون ـ وهذا هو العجيب ـ على أن يبقوا كذلك ، حتى يقع لهم ـ وبالضبط ـ نفس ماوقع لهؤلاء .. ولغيرهم .. فيلقى بهم من شاهق .. وتدق منهم الرءوس والاعناق .!!

قدر الناجحين .. !!

لم تكن « التجربة » طويلة . لكنها كانت عـريضة وعميقة .. تعلم فيها مالم يتعلمه خلال ثلاثين سنة من عمره . عرف فيها « رجالا » تساوى معرفتهم ــ مجرد معرفتهم ــ قناطير من الذهب . رجالا يضعون « الكرامة» فوق المال ، و «الشرف» فوق جميع المصالح والاعتبارات والعلائق .

وعرف فيها « آخرين » برعوا براعة يحسدون عليها فى صناعة « الاقنعة » : اقنعة الاخلاص ، والود ، والمحبة .. يفطرون معك فى الصباح ، ويتعشون فى المســاء بسيرتك .. يقولونك مالم تقله ، وينسبون اليك مالم تفعله ، وأيضا .. مـــالا تستطيع .. ومالا تملك أن تفعله !!

وعرفت فيها « آخرين » يتطوعون للشر ــ للشر فى ذاته ــ فليس بينك وبينهم طريق مشترك .. وليس بينك وبينهم محبة ولا عداوة .. بل ليس بينك وبينهم معرفة ، مجرد المعرفة ، ولكنهم ، مع ذلك ، يتطوعون ــ فى خسة « الانذال » ــ للتشهير بك ، وللتقول عليك .. يروا أعينهم مالم تر ، ويسمعوا آذانهم مالم تســـمع .. ويغرقون ، حتى الاذان ، فى بحور « الباطل » .. زاعمين أنه « الحق » !!

وليس مهما لدى هؤلاء أن يكون كل مايقولونه لم يقع ،

ولم يحدث .. لكن المهم هو ان يذاع ويشاع ، وتتسع دائرة انتشاره .. بعد اذ علموا أن الرصاصة التى لا تصيب ، تدوى !!

هل ذلك كله هو « الضريبة » التى يتحتم على الناجحين ان يدفعوها ؟!

هو ذلك فعلا .. وكلما كان النجاح كبيرا ، كلما كانت « الضريبة » أفدح .. فهذا هو قدر الناجحين ، وعليهم ان يحملوا « قدرهم » على أكتافهم ويمضوا .. فكما أنه ليس فى مقدور الفاشلين أن ينجحوا .. أيضا ليس فى مقدور الناجحين أن يفشلوا .. لمجرد ان يكف عنهم الفاشلون والحاقدون ، أذاهم .. ذلك أمر صعب ، بل هو امر مستحيل ..

ان على الناجحين أن يروضوا أنفسهم على « دفع » هذه الضريبة مهما كانت فادحة .. عليهم أن لا يضيقوا بها .. ولا يرتاعوا منها .. وأن يجعلوا هتافهم ، مع كل صباح جديد :

مرحبا بك ياضريبة النجاح .. فى جميع صورك ، واحجامك ، والوانك ..

وكلمات أخرى .. !!

وتنتهى الى هنا ، تلك « الكلمات المصرية » التى رأت النور ، لاول مرة ، علي صفحات مجلة « الفجـــر » القطرية .. على مدى سنتين هما كل عمرها ــ تنتهى هذه الكلمات لكى تبدأ « كلمات مصرية » اخرى ، كان مــن نصيبها انها نشرت هنا .. فى « مصر » .. بعد ان عاد القلم من رحلته التى لم يبتعد ، خلالها ، عن « مصر » لحظة .. وهيهات لمثل هذا الابتعاد أن يقوم و « مصر » موجودة ، دائما .. وابدا ، فى حبة العين .. وفى نبض القلب .. وفى مسرى الدم بالعروق .

ليس جحودا للعلم الأخضر .. !!

اعلن احد اعضاء مجلس الشعب انه سوف يتقـــدم الى المجلس بمشروع قانون باعادة علم « مصر الملكية » .. ذى الهلال والنجوم الثلاثة ، وتحويل علم « مصــر الثورة » المثلث الالوان الى « علم تذكارى » .. اى الى المنفى !!

وبعد ان قال عضو مجلس الشعب هذا الكلام ، صدرت مجلة شهرية متخصصة ، وهى « الاهرام الاقتصادى » وقد زينت غلافها بعلم « مصر الملكية » . ولكن .. دون ما اى كلام ، وكانها اختارت ان تكون دعوتها الى اعادة هذا العلم « صامتة » حتى لا يوردها الــكلام مــوارد الحرج . !

ثم تبنى الزميل احمد بهجت ، فى بابه اليـــومى بصحيفة الاهرام ، نفس الدعوة قائلا : اننى اقترح — ان نعود لعلم مصر ذى اللون الاخضر .. بهلاله الابيض ، ونجومه الثلاثة . وهذا مجرد اقتراح ارجو انلايغضب العلم الجديد .. فمع احترامى الكامل للعلم الجديد ، الا ان الوانه كثيرة وصارخة .. والعلم القــــديم الوانه هادئة ووديعة ، ثم أن اقتصارنا على لونين فى العلم ، بدل اربعة الوان هو توفير للالوان ، وامكانياتنا المتاحة تدعو الى التوفير » .

وبعيدا عن جحود العلم الاخضر ذى الهلال والنجــوم الثلاثة .. وايضا بعيدا عن التعصب للعلم المثلث الالوان

الذى رفعته ثورة ٢٣ يوليو ، بعد أن تم لها الانتصار على الغاصبين من كل لون وملة ، استطيع القول أن الدعوة الى اعادة العلم القديم ــ مهما كانت عواطفنا تجاهه ــ انما هى دعوة تجاوزها الزمن ، بقدر ماتجاوزتها حركة التاريخ ودوران الحوادث . ويكفي ــ لكى لا يفكر احد فى ارجاع ذلك العلم القديم الى حياتنا ــ ان نتذكر انه كان رمزا على « مصر السلطان » .. و « مصر الملك » . وقد كان « السلطان » .. مثلما كان « الملك » .. محكومين بقوة اجنبية غاشمة ، تامرهما فيطيعان ، وتشير فيركعان . اما عن هلع ، واما عن طمع ، واما عن شىء هو مزيج من الهلع والطمع .

ولنسلم ابتداء ــ وقطعا للطريق على كل محاولة للجدل ــ ان الثورة الوطنية التى انشأت هذا العلم المثلث الالوان ليكون رمزا على مصر جديدة محكومة بفلاح من أبنائها .. وليس بخديو ، ولا بسلطان ، ولا بملك .. قد وقعت فى بعض الاخطاء ، او فى كثير من الاخطاء .. وانها فى بعض المواقف ، او فى كثير من المواقف ، قد ضلت الطريق الى قواربها . ولكن .. هل باستطاعة احد ، مهما بلغ من جحود ، ومن قدرة على الافتيات على التاريخ ، ان ينكر ان هذه الثورة الوطنية قد خاضت معارك تعتبر ــ بكل المقاييس ــ من اشرف معارك الشعوب من اجل حريتها ، ومن أجل تأكيد وجودها .. وانها ــ اى الثورة الوطنية ــ قد خاضت كل معاركها المجيدة هذه مستظلة بذلك العلم المثلث الالوان الذى ينادى بعضهم ــ ويا للعجب ــ بتحويله الى « علم للذكرى » !!

● ففى معركة اجلاء المحتلين عن ترابنا الوطنى ، كان

هذا العلم المثلث الالوان هو الذى ارتفع فى منطقة القنال فوق ساريات الثكنات التابعة لتلك الدولة البغيضة التى لم تكن الشمس تغرب عن ممتلكاتها .

● وفى معركة تاميم قناة السويس ، كان هذا العلم المثلث الالوان هو الذى ارتفع فوق ساريات مبنى الشركة الفرنسية التى كانت دولة داخل الدولة ، والتى لم يكن باستطاعة واحد من كل أولئك الذين حكموا مصر قبل الثورة ان يقول « بم » لواحد من العاملين فيها ، أو المنتمين اليها . !!

● وفى معركة بناء السد العالى .. كان هذا العلم المثلث الالوان هو الذى ارتفع فى سماء اسوان ، معلنا ان ارادة مصر فوق كل ارادة .. وان سواعد ابنائها سوف تظل ، دائما ، اقوى من القهر .. واقوى من الغدر .. واقوى من تآمر الكبار والصغار عليها .

ثم .. هل باستطاعة احد أن ينسى أن « علم مصر الثورة » قد بلغ ذروة امجاده عندما رشقه أبناء مصر .. « ابطال إكتوبر » .. كالخنجر فى قلب « بارليف » . ؟ ان هذا المجد ، وحده ، كاف لان يجعلنا نحيط العلم المثلث الالوان بكل الولاء ، وبكل الاعزز ، وبكل الحب .. ولان نبقيه ــ والى الابد ــ مرفوعا فوق رءوسنا رمزا على صلابتنا ، على عنادنا ، على اصرارنا على افتداء كرامتنا بكل مانملك من مال .. وبكل مانملك من دم .

***

وانه لصحيح أن هذا العلم نفسه كان قد انتكس ، فى حرب ٦٧ ، انتكاسة اليمة ومريرة . ولكن .. هل كان ، فى انتكاسته هذه ، بدعا بين اعلام الامم .؟

الجواب : كلا .. فلقد أنتكست ، على مدار التاريخ ، اعلام امم كثيرة .. غير ان ذلك لم يكن مدعاة لان يطالب أحد باهدارها ، او بنفيها ، او بتحويلها الى « اعـلام للذكرى » !!

لقد انتكس ، على سبيل المثال ، علم فرنسا المثلث الالوان انتكاسة أكثر من مريرة .. سقط فى سنة ١٩٤٠ وسقطت باريس بسقوطه ، وسقطت بسقوط باريس فرنسا كلها .. ولكن « ديجول » عاد فى سنة ١٩٤٥ ورد علم بلاده الى ساريته العالية .. ومشى ، فى ظله ، الى قوس النصر .. شامخ الرأس ، موفور الكرامة .. ولم يجرؤ أحد ، فى فرنسا كلها ، ان يرفع صوته مطالبـا بتغيير العلم الذى كانت النازية قد امتهنته ، وأذلته ، وداسته تحت أقدامها .

والامثلة فى التاريخ كثيرة . ولكن الشعوب لا تجحد اعلامها ، ولا تهدرها ولا تطالب بنفيها .. ولا بتحويلها الى اعلام للذكرى .!!

لقد نشأ على ارض مصر ـ على امتداد الفترة من سنة ١٩٥٢ حتى الان ـ جيل كامل لم تر عيناه العلم الاخضر الذى يطالب بعضنا اليوم بعودته . وهذا الجيل نفسه هو الذى حارب معركة أكتوبر مستظـــلا بالعلم المثلث الالوان . لقد عبر القناة تحته . وارتقى « حصون بارليف تحته ، وفتح القناة تحته .. ومن الجحود لبطـولات هذا الجيل أن نجعله يستيقظ ، ذات يوم ، ليجد نفسه قد استظل بعلم لم تره عيناه يوما .. ولم يستظل به يوما .. ولم ترفعه يداه ابدا !!

اننا مانزال حتى اليوم ، ولسوف نظل الى آخـــر

العمر ، نغنى — وبكل الحنين والحب — نشيد « بلادى .. بلادى » الذى ولد من رحم ثورة ١٩١٩ . ومع أن هذه الثورة قد اجهضت قبل أن تحقق أيا من احلامها ، الا أن أحدا لم يفكر فى مصادرة هذا النشيد الذى انتزعه « سيد درويش » من اعماق وجدانه ليبقى ، من بعده ، واحدا من اجمل الاشياء فى حياتنا .. فكيف بنا اليوم ، نريد مصادرة علم خضنا تحته أشرف معاركنا . واثبتنا ، تحته ، اننا نملك — دائما — وفى ظل أقسى الظروف واصعبها .. ارادة الصمود ، وارادة التحدى .؟!!

حتى تأميم القناة .. صار خطيئة .. !!

الذين يختصمون ثورة ٢٣ يوليو — بسبب أو بغير سبب .. بوعى أو بغير وعى — يصممون على الا يروا في سجلها كله — على ضخامته — أى عمل عظيم .. كل مافى هذا السجل ، من وجهة نظر هؤلاء الخصوم ، ليس سوى سلسلة من الاخطاء الفادحة او الخطايا الجسام .. حتى تأميم قناة السويس — وهو واحد من اضخم أعمال هذه الثورة .. ومن أكبرها أثرا ،واشدها تأثيرا فى مسار حركات التحرر فى العالم العربى والعالم الثالث — **« كان خطأ .. كلفنا ان ندخل حربا لا مبرر لها، وان نفقد من ابنائنا عددا لا يمكن تعويضهم .. بينما لو كنا قد صبرنا على انفسنا ، لكانت شركة القناة ، بكل ممتلكاتها فى الداخل ، وفى الخارج ، وقد آلت الينا — بحكم انتهاء امتيازها فى سنة ١٩٦٦ — بغير حرب — ولا ضرب ، ولا ضحايا . » !**

هكذا قال الزميل الاستاذ أحمد ابو الفتح فى ندوة صحفية عقدها اخيرا .

وما اظن ان احدا قد سبق الاستاذ أبو الفتح الى مثل هذا القول .. وما اظن ايضا ان أحدا سوف يلحقه . ذلك لان سياسة الانتظار « حتى يتساقط النصر تلقائيا»

لم تكن ، ولن تكون ، وسيلة معتمدة ضمن وسائل كفاح الشعوب . ولو أن ذلك كذلك ، لكان على حكومة الوفد التى كانت موجودة فى الحكم سنة ١٩٥١ أن تصبر على معاهدة ٣٦ حتى يحين موعد انتهائها .. فلا تبادر ، من ناحيتها ، الى الغائها .. ويترتب على هذه الخطـــوة ماترتب من خسائر مادية جسيمة ، ومــن ضـــــحايا مدنيين وعسكريين ان لم يعدوا بالالاف ، فهم ــ بالقطع ــ يتجاوزون المئات ــ ولم يقل أحد ، وقتها ، ولن يقــول أحد ، فى المستقبل ، ان هذه الخطوة كانت عملا خاطئا من جانب حكومة الوفد . بل لعلها أن تكون فى نظـــر الكثيرين ــ واحسبنى منهم ــ .. أنصع صفحة فى كتاب تلك الحكومة ، باعتبارها كانت وقفة من نوع جديد فى وجه أولئك القراصنة الذين كانوا يحتلون أرضنا .

ولو اننا اخذنا بمبدأ الانتظار ــ تجنبا للمخاطـر ــ لكان علينا أن ننتظر حتى يختار الله « الملك فاروق » الى جواره ، ويهبنا من لدنه « ملكا صالحا » يؤمن بحــق الشعب فى الحياة ، ولا يقيم وجوده على أساس الاستناد الى جناحى الطغيان : الاحتلال الاجنبى .. والاقطــاع الضارى . ومن ثم ، فلم يكن هناك اى داع لان تقــوم ثورة ٢٣ يوليو التى كان من المحتمل ــ فيما لو فــكر فاروق أن يقاوم ــ أن تتحول الى معركة دموية شرسة بين جيش الشعب .. وبين أولئك التعساء الذين كانوا سيختارون جانب الملك .!!

أيضا .. لو اننا اخذنا بمبدأ الانتظار ــ تجنبا للمخاطر ــ لكان علينا أن ننتظر حتى يلين لنا « قلب امريــكا » فتقوم بتسليح جيشنا ، حسبما تسمح لها رغبتهـــا

الحقيقية في تسليحنا : مدفع كل شهر .. ودبابة كل سنة .. وطائرة كل ١٠ سنوات !! ولما كان هناك اى مبرر لان نخوض معركة « كسر احتكار السلاح » بكل ماترتب عليها من آثار .. لعل حرب ٥٦ ، بل وحرب ٦٧ نفسها ، كانتا من اخطرها تخطيطا .. بوصفهما محاولتين جبارتين للقضاء على ذلك السلاح الذى بادرنا، بارادتنا الحرة ، الى جلبه من الشرق .. ولم نكن من « الحكمة » ، ولا من « التعقل » ، بحيث نصبر .. وننتظر .. حتى يجيئنا ـ تلقائيا ـ من الغرب !!

ايضا .. لو اننا أخذنا بمبدأ الانتظار ـ تجنبا للمخاطر ـ لكان علينا أن نؤجل التفكير في بناء « السد العالى » عشر سنين .. وربما عشرين سنة .. حتى يرق لنا قلب « البنك الدولي » .. ورئيسه « يوجين بلاك » .. ومن ورائهما ـ بالطبع ـ امريكا ، فيقومون ـ تعطفا .. وشفقة ـ ببناء السد العالى متى أرادوا وكيفما ارادوا .. ولتفادينا بذلك كل الاثار التى ترتبت على مقاومة مؤامرة أمريكا ، ومعها البنك الدولى ، لنسف مشروع السد العالى .. بدءا بمقاومة تأميم قناة السويس .. ومرورا بحرب السويس .. وأنتهاء بالحصار الاقتصادى الذى فرضته دول الغرب علينا بقصد تركيعنا ، وتجويعنا .. الى آخر هذه الاثار التى خضناها واحتملناها ، والتى رفعت رءوسنا .. واعلت شأننا بين شعوب العالم والتى تعى ، جيدا ، انه ليس بالخبز وحده تحيا الشعوب .

***

لقد كان تأميم قناة السويس عملا ثوريا ونضاليا ، بكل مقاييس النضال والثورة .. ولو لم يكن لهذا العمل من نتائج الا انه حرك الدماء حارة فى عروق شعوب

الامة العربية التى كانت مغلوبة على أمرها ، وأعاد اليها الثقة بنفسها .. وبقدرتها على تغيير اوضاعها — لكان ذلك وحده كافيا لكي يوضع هذا العمل على رأس قائمة أمجد ماقامت به ثورة ٢٣ يوليو من اعمال .

وليس صحيحا ، مطلقا ، مايقال أن تأميم قناةالسويس كان قرارا أنفعاليا جاء كرد فعل مباشر لقيام البنــك الدولى بسحب مشروعه لتمويل السد العالى . وبفرض أن القرار كان كذلك ، لما عابه ذلك ادنى عيب . فالشعوب الحية ، حقيقة ، انما هي التى تعرف كيف ترد على اية صفعة توجه اليها بصفعة أوجع وأشد . ومع ذلك ، فالحقيقة التى يعلمها كل الذين كانوا قريبين من مسرح الاحداث فى تلك الايام — ومنهم عشرات لايزالون أحياء يرزقون — تؤكد أن قرار تأميم قناة السويس كان قـد درس ، منذ الشهور الاولى لقيام الثورة ، درســـا مستفيضا وعميقا .. بواســـطة عدد من الخـــبراء والقانونيين ، كان على رأسهم القانونى الوطنى العظيم الدكتور حلمى بهجت بدوى . وكان قرار التأميم جاهزا فى درج عبد الناصر فى انتظار الفرصة المناسبة لاعلانه . فلما قام البنك الدولى بسحب مشروعه لتمويل الســد العالى ، لم تكن امام عبد الناصر فرصة أثمن من هــذه لكى يخرج القرار من درجه ، ويعلنه على الملأ .. حتى يعلم ، من لا يريد أن يعلم ، اننا قد تغيرنا .. واننا لم نعد ندير خدنا الايسر لمن يصفعنا على خدنا الايمن .!!

***

انني واحد من الذين وقفوا بجانب ثورة ٢٣ يوليو ، منذ اللحظات الاولى لقيامها ، بل وقبل أن تقــوم ..

لكنني ، فى ذات الوقت ، وأحد من الذين يعترفون ـ وبأعلى الصوت ـ بأن لثورة ٢٣ يوليو أخطاء ليس من السهل الدفاع عنها . لكن هذه الثورة نفسها لها من الامجاد مايستحيل طمسه ، او اخفاء معالمه .

وليس معنى أن يكون لثورة ٢٣ يوليو اخطاء ، ان ينتهز البعض كل مناسبة .. واحيانا بغير مناسبة . لكى يجردوها من معظم أمجادها ، او من كل امجادها .. ان ذلك لظلم عظيم لايقع على ثورة ٢٣ يوليو ، بقدر مايقع على مصر نفسها باعتبارها الام الحقيقية لهذه الثورة التى أسقطت الملكية .. واسقطت الاقطاع .. واسقطت الاحتلال .. وأممت القناة .. وكسرت احتكار السلاح . وشيدت السد العالى .. وخلصت الاقتصاد الوطنى من براثن الاحتكارات الاجنبية . وأشعلت الثورة على الطغيان .. وعلى الاحتلال الاجنبى .. من المحيط الى الخليج .

انني لا انصب نفسي محاميا عن ثورة ٢٣ يوليو . فاحسبني ـ حتى اللحظة ـ واحداً من جرحاها . لكن الجراح الشخصية شيء . والحق شيء آخر تماما .. والحق احق بأن يعلو فوق الجراح ، ويتسامى عليها . فذلك ـ باليقين ـ هو أول الطريق لاحترامنا لانفسنا . ومن ثم ، احترام الاخرين لنا .. اما أن نصدر فى كل مانقوله فى شأن الثورة عن حقد .. او عن ضغن .. او عن رغبة دفينة فى تصفية حسابات قديمة او جديدة . فذلك ـ وباليقين ايضا ـ هو أول الطريق الى السقوط فى هوة التردى .

القطاع العام .. « مولد » غاب صاحبه ... !!

الدور الذي لعبه القطاع العام ـ بشتى أوجه نشاطاته ـ في مواجهة الحروب والازمات التى المت بنا منـــذ وقع التاميم .. وحتى هذه اللحظة ، يشهد له بالكفاءة وبالقدرة .. ويفرض علينا دعمه وتحيته وتقديره . بيد ان النجاح الكبير الذى حققه القطاع العام على امتداد ، الفترة من سنة ١٩٦١ وحتى الآن ، لاينفي القول انه قد لازمته ، ومازال ، شوائب كثيرة .. وربما خطء .. لعلها أن تكون قد غطت ، لدى الكثيرين ، على منجزاته .. وجعلتهم يفقدون الثقة ـ لبعض الوقت أو لكل الوقت ـ فى ان يكون القطاع العام قد حقق نجاحا ما .. ومن ثم ، فقد ارتفعت أصوات كثيرة .. بعضها ينادى بالغائه ، وبعضها ينادى بتقليصه ، وكلها لا تعترف له باى فضل .

وربما يكون لهؤلاء .. ولأولئك .. شيء من العذر فى ذلك السخط الذى لون مشاعرهم تجاه القطاع العام . فلقد تعددت ، على صفحات الصحف ، صور الشروخ الكثيرة التى نجحت ـ فى غيــاب الحساب والعقاب ـ فى ان تشق لنفسها اكثر من طريق فى ذلك البنــاء الضخم الذى كان يتعين على الجميع أن يحموه ـ باعتباره ملكا للجميع ـ بكل سواعدهم ، وبكل قلوبهم . فما أكثر ماقرات الجماهير عن انحرافات خطيرة هنا ، وهنالك .. وما اكثر ماقرات الجماهير عن اختلاسات تجــاوزت الالاف الى الملايين هنا ، وهنالك .. وما اكثر ما قــرات

الجماهير عن شركات خاصة اسسها بعض القائمين بامر القطاع العام من باطن القطاع العام نفسه !! وما اكثر ماقرأت الجماهير عن عمولات بالملايين استحلها لانفسهم عدد من اساطينه .!!

ومن الحق ان نقول آن كثيرا من هذه الانحرافات الخطيرة، او هى كلها، ماكانت لتقع لو أن اجهزة الحساب كانت مطلقة اليد في سائر مسئولياتها .. ودون أن يصدها عنها شعور لعله ان يكون قد بلغ عندها مرتبة اليقين بأن لا جدوى، ولا فائدة من وراء جهودها مادام أحد لا يريد أن يحاسب .. ومادام أحد لا يريد أن يعاقب .. ومادام الاعمى قد استوى — فى موازين الحساب — مع البصير .. ومادامت الظلمات قد استوت — في نفس هذه الموازين — مع النور !!

لكن ذلك كله — وأن جاز ان يكون عذرا للذين سخطوا على القطاع العام، وحملهم على أن يرفعوا أصواتهم مطالبين بتقليصه او الغائه — الا أنه لا ينبغى له أن يفقدنا الثقة فى قدرتنا على اصلاح ماوقع فى بناء القطاع العام من شروخ، لعلنا لا نجاوز الحقيقة اذا قلنا ان القطاع العام، فى ذاته، لا يعتبر مسئولا عنها .. بقدر مايعتبر مسئولا عن ذلك بعض قياداته ممن اعوزهم الضمير الوطنى، واعوزتهم النزاهة، واعوزهم الشرف .. فلم يروا فى القطاع العام الا أنه « مولد » غاب صاحبه .. ومادام « المولد » قد غاب صاحبه، فليس ثمة وازع لدى هذا الصنف من القيادات يمنعها من أن تلتهم « الحمص » كله .. و « الحلوى » كلها .!!

***

لكن الاخطاء – وأن طال بها الزمن – فهى ليست فى منعة من العلاج . واحسب أن تباشير هذا العلاج قد بدت مع ذلك الاهتمام الواضح الذى أبداه المسئولون ، فى الاونة الاخيرة ، بوضع تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات موضع العناية والاحترام . ولعل هذه التباشير تكون قد بدت أيضا فى تشديد قانون العاملين الجديد على ترسيخ سياسة « الحوافز » .

و « الحوافز » ، فى ذاتها ، لا يمكن ان تكون محل اعتراض من احد . فالمؤكد أنها مطلوبة ، وضرورية ، بل وحتمية .. اذا ما أردنا للانتاج جودة وللعمل انطلاقا .. ولكن الاعتراض ، كل الاعتراض ، هو على أن تكون رؤساء مجالس الادارات فى تقرير هذه « الحوافز » مطلقة .. لا يقيدها قيد ، ولا يضبطها ضابط . فذلك حرى بأن يحول كل شركة من الشركات الى « عزبة خاصة » .. يصول فيها صاحبها « رئيس مجلس الادارة » ويجول .. ويغدق مايشاء من أموال على من يشاء من أسناده واعوانه ، دون ان يكون لهؤلاء الاسناد والاعوان أى دور حقيقى فى دفع عجلة العمل ، أو فى تجويد الانتاج .

ان نظرة واحدة يلقيها أى من الوزراء الذين تقع مؤسسات القطاع العام فى دائرة مسئولياتهم ، على قوائم المكافآت التشجيعية ، ومكافآت الانتاج التى حصل عليها كثيرون ممن يشغلون الوظائف العليا فى كثير من الشركات ، وهم جلوس فى مكاتبهم المكيفة لا يبرحونها ، سوف تصيبهم بدهشة بالغة . ذلك أنهم – أى الوزراء المختصون – سوف يكتشفون ، من خلال هذه النظرة الواحدة ، ان عددا لا حصر له من أصحاب هذه الوظائف

العليا قد حصلوا من « الحوافز » ـ بشتى مسمياتها ـ على « نصيب الاسد » . ولعل بعضهم ان يكون قد حصل من هذه الحوافز على مايعادل راتبه فى سنة .. وربما فى سنتين !! ومستحيل ان يكون هذا عدلا ، ومستحيل اكثر ان يكون حقا .. وانما هو شيء اقرب مايكون الى مانسميه بسياسة : « شيلنى .. واشيلك » .!!

ان خطورة هذه السياسة التى تختصم الذمة ، وتختصم الامانة ، وتختصم الشرف ، لا تتمثل فقط فى أن بعض الناس يحصلون على مالا يستحقون ، وانما الخطورة الفادحة الناجمة عن مثل هذه السياسة انما تتمثل فى انها تصيب الكادحين الحقيقيين بالاحباط ، وبانهيار الحماسة .. فيركنون الى الراحة .. والى التراخى .. بل والى « اللامبالاة » نفسها ، ماداموا يرون أن من لا يعملون ولا ينتجون يحصلون على ناتج عرقهم على مالا يحصلون هم انفسهم عليه ، وتكون النتيجة الحتمية لمثل هذه المشاعر هى انهيار الانتاج .. كما وكيفا!!

ومن هنا .. ولكى يأتى نظام « الحوافز » ـ بشتى مسمياته ـ بثمراته المرجوة ، فلابد من وضع ضوابط ـ بل كثير من الضوابط لسلطات رؤساء مجالس الادارات فى تقرير هذه « الحوافز » .. والا انتهى الامر ـ كما أسلفت ـ الى أن تتحول كل شركة من شركات القطاع العام الى « عزبة خاصة » يغدق رئيسها ما يشاء من مكافآت على من يشاء من أعوانه بغض النظر عن حجم اسهامهم فى الانتاج وجودته او فى العمل وانطلاقه .. وانما النظر ، كل النظر ، الى حجم اسهامهم فى تدعيم أركان سياسة « شيلنى .. واشيلك » .!

ان من حق العاملين فى شركات القطاع العام أن

يستريحوا ، ومن حقهم أن يرفه عنهم ، ومن حقهم ان يرتادوا المصايف .. كالاسكندرية وبورسعيد . وان يرتادوا المشاتى .. كالاقصر وأسوان ، ولكن ... ليس شرطا لتحقيق ذلك ان ينزل هؤلاء العاملون — كما هو حادث الان .. فى كثير من الشركات — بافخر الفنادق ، وان ينفقوا ابهظ النفقات .. فان الذى يدفع هنا ليس هو الشركات ، بل ان الذى يدفع انما هو الشعب المطحون الذى تحمله هذه الشركات — عن طريق سلعها ومنتجاتها — ابتداء من رغيف العيش ..ومرورا بقطعة الجبن .. وانتهاء بالتليفزيون الملون ، تكاليف هذه « الرفاهية » التى لا مبرر لها ، ولا مسوغ .. اللهم الا أن يكون هذا المبرر ، وذلك المسوغ ، هو تجرد بعض قيادات القطاع العام من كل شعور بالامانة نحو « المال العام » الذى لا يخرج ، اولا واخيرا ، عن كونه امانة فى أعناقهم لا يملكون — مهما ابتكروا من معاذير — حق تبديدها ، ولا العبث بها ، ولا الانحراف بها عن مسارها

ان وضع الضوابط — كثير من الضوابط — على سلطات رؤساء مجالس الادارات فى تقرير نوع ، وحجم « الحوافز » للعاملين فى مؤسساتهم ، أمر لا يحتمل التراخى فيه ، او التغاضى عنه .. هذا اذا كنا جادين فى حماية القطاع العام من ان يتحول الى « عزبة خاصة » .. واذا كنا لانريد ان نأتى — بعد وقت يطول او يقصر — فنبكى .. ونتفجع .. ونتساءل — حيث لا يجدى التساؤل — « أين كنا .. عندما تحول القطاع العام إلى عزبة خاصة ؟!! » .

رجل .. فى فوهة المدفع .. !!

لم اكن محتاجا لان اقترب منه ، او ان اقيم معه علاقة شخصية ، لكى اعرف أنه واحد من ذلك الطراز النادر من الرجال الذين يعملون فى هدوء وصمت .. وبلا ضجة ولا ضوضاء كتلك التى تحدثها البراميل الفارغة .!! فلقد وضعته كفاءته المتألقة .. ووضعه علمه وانتماؤه الحميم لمصر وترابها ، على راس مرفق مصرى خطير ، بل لعله اخطر المرافق المصرية جميعا ، ذلك لانه ــ اعنى المرفق ــ مصرى بالمكان .. عالمى بالدور الذى يلعبه . ومن هنا كان العالم ــ ومايزال ــ ولسوف يظل .. يضع عينيه على هذا المرفق راصدا حركته .. نجاحه او فشله .. تأخره او تقدمه ..

واذا كانت كفاءة الرجل المتألقة ، وعلمه وانتماؤه الحميم لمصر وترابها ، قد جعلت ثورة ٢٣ يوليو تضعه على رأس اخطر مرفق مصرى ــ عالمى ، فلقد وضعه قدره ، ومعه مرفقه الخطير هذا ، فى طريق المعارك . فكان كلما اندلعت على أرضنا حرب ، وجد نفسه ، ومرفقه معه ، فى قلب المعركة .. لا بل فى فوهة المدفع !!

لكنه ، فى كل مرة وضعه قدره فيها فى قلب المعركة .. وفى فوهة المدفع ، لم يكن ينكفىء على نفسه .. واضعا يده على خده حزينا آسفا .. فى انتظار ساعة

تتوقف فيها الحرب لكي يعود فيعمل ، بل كان يتحول – وفي سرعة مذهلة – ومعه رجاله ، وترسـاناته ، وورشه ، وكل الادوات التي بين يديه الى خدمة الحياة المدنية بنفس المقدرة ، بنفس الكفاءة ، بنفس الحماسـة المبهرة التي كان يخدم بها العالم ، شرقه وغربه على السـواء ، قبل أن تضعه المعارك في فوهة المدفع .!!

لقد أغلقت « قناة السـويس » – ذلك المرفق المصرى العالمي الخطير – اغلقت في أعقاب حرب ٦٧ ثمـانى سنوات كاملة . ثم عادت في سنة ٧٥ لتستأنف دورها العتيد في خدمة العالم .

ولكن ... هل عادت « قناة السويس » الى ما كانت عليه قبل اغلاقها ؟

انها لو كانت قد عادت الى مثل ماكانت عليه ، قبـل اغلاقها ، لكان ذلك – في حد ذاته – انتصارا رائعـا لذلك « المايسترو » النادر المثال .. الذى يقود نخبـة مختارة من ابناء مصر ، احسبهم قد قطعوا على انفسهم عهدا بأن يبهروا العالم بما في مقدورهم ان يفعلوه بين العشرة .. والعشرة !!

لكن « قناة السويس » لم تعد الى مثل ماكانت عليه .. بل عادت الى احسن مما كانت عليه عرضا وعمقا .. وراحت تستقبل الناقلات العملاقة .. نفس الناقـلات التي بناها أصحابها بهدف الاستغناء بها عـن « قنـاة السويس » التى كانت ، قبل اغلاقها ، عاجزة عن استقبال مثل هذا النوع من الناقلات .

فهل تم ذلك الانجاز الهائل فجأة .. وساعة أن تقرر أن تفتح القناة ذراعيها لتستقبل ، من جديد ، سفن العالم . ؟!

مستحيل طبعا .. فمثل هذا الانجاز الهائل ، بكل المقاييس ، لابد وأن تسبقه دراسات مضنية ، وسهر طويل ، وجرى هنا وهناك للالتقاء بالخبراء من كل لون وجنس ، قبل أن يستقر الرأى ــ أخيرا ــ على من سوف يأتي منهم ليخلط عرقه بعرق الجباه المصرية الاصيلة ، والقادرة ــ دائما ــ على صنع المعجزات حين يضعها قدرها في موضع الاختبار .

ولن يكون بناء « السد العالى » .. واقامة « مجمع الحديد والصلب » ونسف « خط بارليف » في ساعات من الوجود .. وشق « نفق الشهيد أحمد حمدى » .. لن يكون ذلك كله هو آخر المعجزات التى تستطيع العقول المصرية ، والسواعد المصرية ، أن تحققها !!

***

ولان نجاح المهندس « مشهور احمد مشهور » ، ذلك « المايسترو » النادر المثال ، كان رائعا وباهرا .. فقد كثرت التساؤلات حول أسرار ذلك النجاح الرائع ومفاتيحه .

وفى الاسبوع الماضى ــ وبمناسبة الذكرى الثامنة لاعادة فتح القناة ــ سألوه صراحة ، ومباشرة ، عن هذه « المفاتيح » .. وتلك الاسرار . فجاءت اجاباته قاطعة الدلالة على مدى ابتعاده عن « الانا » القاتلة .. وقاطعة الدلالة أيضا على ايمانه بالانسان ، وبما يستطيع ان يفعله .. وكيف انه ــ اى الانسان ــ قادر

على ان يصنع المعجزات .. متى وجد من يؤمن به ، ويعطيه بقدر ما يأخذ منه ، ويضع انسانيته قبل اى اعتبار .. وفوق كل اعتبار .

● قال « مشهور » ، وهو يقدم للناس مفاتيح نجاحه: « الحقيقة ـ امام الله ـ أن نجاح العمل فى هيئة قناة السويس لا يرجع الفضل فيه الي شخص واحد . ولكن يرجع الفضل فيه لاكثر من ١٤ ألف شخص هم مجموع العاملين فى الهيئة .. وكل واحد منهم ساهم بنصيبه فى هذا النجاح دون أن يبخل بأى جهد .. انني أعترف ان الجهد الصامت ، وارادة التحدى التى ملأت نفس كل واحد منا ، كانت هى « مفتاح المفاتيح » .. فاذا اردت لاى عمل أن ينجح ، فلابد أن نزرع ـ اولا ـ فى قلب كل رجل ارادة التحدى .. تحدى الفشل .. تحدى الصعوبات .. تحدى قلة الامكانيات .. تحدى الروتين . تحدى اليأس . والانسان يجب أن يدخل معركة ، او معارك من هذا النوع ، وينتصر .. واعترف ان رجالى ـ كلهم ـ أنتصروا فى معارك التحدى وكانت ـ للحق ـ معارك كثيرة واجهنا فيها الخطر ، وواجهنا القلق ، وأحيانا كنا نواجه « الموت نفسه » ..

● وقال « مشهور » : لقد كنت أثناء فترة اغلاق القناة ، اتابع من خلال اجهزة الهيئة ، التطورات التى تجد فى العالم كله .. وكنا نعمل كما لو كانت القناة تعمل . ومن هنا شهدت القناة ملحمة التغيير ... ثم ملحمة التطوير ، دون اى عثرات .

انني لا ازهو بأحدث المعدات التى تستخدمها الهيئة . ولكني ازهو ـ اكثر ـ بالرجال الذين يعملون على هذه

المعدات وبتقديراتهم ، أن الانسان عندي أهم من أي آلة في العالم .. وهو عندي أغلى من أي كمبيوتر في العالم ، ولو أنك ركزت اهتمامك بالانسان ، واعطيته من وقتك ، ومن رعايتك ، ولم تبخل عليه .. فسوف يعطيك بدوره الكثير .. بل أكثر مما تتخيل .

● وقال « مشهور » : لدى ثقة كاملة في ان العلماء المصريين من أكفأ العلماء في العالم ، ولكنهم يحتاجون الى شيئين : التقدير أولا ... والإمكانات ثانيا .. ولاني أهتم اهتماما خاصا بالجانب الانساني أكثر من الجانب المادي ، فقد أعطيت للعلماء العاملين بالهيئة الشيئين معا: التقدير والامكانات .فاعطوني نتائج تشرف مصر كلها .

● وقال « مشهور » : العامل عندنا لا يخرج الى المعاش في صمت .. ولكن كل عامل عاش في القناة ، وشهد معاركها ، وشارك في هذه المعارك .. واصبحت القناة عمره ، وحبه الكبير ، لابد أن يخرج الى المعاش ولديه الشعور ان جهده لن يطويه النسيان . ولهذا نقيم احتفالا للمحالين الى المعاش ، لا نكتفي فيه بتكريمهم ، وانما تحل فيه أية مشاكل تكون موجودة لدى أى واحد منهم .. ان مفتاح اى نجاح هو « الانسان » .. الانسان أولا .. والانسان اخيرا .. وبعد ذلك كل شيء يهون .

وبعد .

لقد اكبرت هذا الرجل .. هذا « المايسترو » النادر المثال ـ اكبرته مرتين : المرة الاولى عندما التقيت به مصادفة وكنا ـ المحامي والانسان العظيم النبيل المرحوم عبد الفتاح حسن وأنا .. نغادر مكتبه ، فوجدناه

واقفا ينتظر المصعد الذى كنا نهبط به ، وبعد ان تصافح الرجلان ، قام المرحوم عبد الفتاح حسن بتقديم كل منا للاخر .. وجدته بسيطا ، ومتواضعا ، وودودا كفلاح مصرى اصيل . وعلى الفور ، قفزت أمام عينى صورة الشجرة المحملة بالثمر .. انها تتجه بغصونها وثمارها نحو الارض .. على العكس تماما من الشجرة العقيم من اى ثمر ، فانها تتعالى بنفسها نحو السماء .!!

اما المرة الثانية التى اكبرت فيها « مشهور أحمد مشهور » فكانت يوم أن اعتذر ـ وباصرار ـ عن تولى منصب الوزير عندما عرضه « السادات » عليه .. فكثيرون جدا من الناس يتطلعون الى هذا المنصب ، ويتهافتون عليه ، ويضحون ـ فى سبيله ـ بمواقع ذات شهرة عريضة ، وكسب مادى وفير .. لكنه ـ استثناء من هؤلاء الكثيرين الذين يسيل لعابهم تطلعا الى هذا المنصب ـ لم يتردد لحظة فى رفضه .. وآثر عليه ـ وفى اصرار ـ حبه الاول والاخير .. قناة السويس !! على الرغم مما يجره عليه هذا الحب من متاعب واهوال فى طليعتها انه يضعه ـ بين كل آونة واخرى ـ فى قلب النيران .. وفى فوهة المدفع !!

سلام على جامعات العمالقة .. !!

سلام على جامعات لطفى السيد وطه حسين واحمد امين .

سلام على جامعات على مشرفة وعبد الرازق السنهورى وعلى ابراهيم .

سلام على جامعات حلمى بهجت بدوى ومصطفى القللى وعبد الوهاب عزام .

سلام على أيام كانت فيها ساحات جامعـــات مصر مقدسة .. تماما كساحات القضاء ، لا نكاد نسمع منها .. ولا نكاد نسمع عنها .. لغوا ولا تاثيما .

سلام على ايام كان فيها « رئيس الجامعة » .. وايضا « استاذ الجامعة » مهيبا وجليلا ومنيعا على كل ذى سلطان ، وعلى كل ذى صلة بالسلطان من قريب او بعيد .

أما اليوم .. فليس يملك الفرد ـ وهو يقرأ ، ويسمع ، بما يجرى وراء جدران الجامعات .. وفى دهاليزها .. وخلف كواليسها ـ الا أن يضرب كفا بكف .. ويتساءل فى مرارة ، وايضا فى ذهول : ماذا جرى للجامعات ؟!

نعم .. ماذا جرى للجامعات ، حتى أصبحنا لا يكاد يمر علينا يوم دون أن نسمع فيه بفضيحة من نوع ما ،

تدور فصولها في اروقة واحدة منها ؟!

وليت هذه الفضائح التي أخذنا نقرأ عنها ، ونسمع بها في الاونة الاخيرة ـ ليتها كانت محصورة في دائرة « الطلائع » ممن سوف يصبحون ، غدا ، اساتذة الجامعات .. نعم ليتها كانت محصورة في دائرة المعيدين والمدرسين المساعدين ، والمدرسين .. اذن لهان الخطب قليلا .. ولالتمسنا لهؤلاء العذر من جموح شبابهم ، ومن ضآلة تجاربهم ، ومن تعجلهم ـ الطبيعي ـ لبناء مستقبلهم وتحقيق طموحاتهم .

ولكن مايجعل الخطب جللا ، والمصيبة فادحة ، هو ان تلك الفضائح الجامعية التي اخذنا نقرأ عنها ، ونسمع بها ، لا تتصل ـ من بعيد أو قريب ـ بهؤلاء « الطلائع » وانما تتصل ـ وهنا مكمن المرارة والحسرة والفزع ـ بالقمم من سدنة الجامعات .

فلقد قرانا ، من قبل ، عن رئيس واحدة من جامعاتنا الاقليمية طلب اليه أن يستقيل من منصبه الخطير .. بعد أن ثبت ضده انه قبل من احد المتعاملين مع الجامعة جهاز تليفزيون .. او جهاز « فيديو » ، لا فرق !!

ومن قبل ـ ايضا ـ سمعنا لغطا خطيرا يدور حول تصرفات رئيس جامعة اقليمية اخرى . ولقد رددت هذا اللغط الخطير نائبة ـ تحت قبة مجلس الشعب ، وانبرى رئيس الجامعة للدفاع عن نفسه . وصدق كثيرون دفاع الرجل عن نفسه ، لكن كثيرين غيرهم لم يصدقوه ، تاسيسا على انه مستحيل ان تأتي كل هذه التهم من فراغ .. وانه مستحيل ، ايضا ، ان يكون هناك دخان بغير نار ! وبين هؤلاء واولئك بقيت سمعة الرجل ،

وسمعة جامعته معه ، مثخنة بالجراح ..!!

وان هي الا ايام حتى جاءت ثالثة الاثافي .. جاءت متمثلة في عميد احدى كليات جامعة المنصورة . كشفت الرقابة الادارية عن قيامه بافتتاح مكتب تنسيق خاص به ، راح يقبل عن طريقه كل الذين لا تؤهلهم مجاميع درجاتهم للالتحاق بأية جامعة .. وذلك نظير دفع « المعلوم » الذى لم يكن يقل عن ألف جنيه !!

مصيبة كبرى .. واهدار قاتل لكل المبادىء والقيم ، وعلى رأسها مبدأ تكافؤ الفرص بالنسبة لاولئك الذين يعتمدون على جهدهم وحده ، وعلى سهرهم وحده ، فاذا بهم يتساوون مع المستهترين والكسالى والفاشلين .. لمجرد أن آباء هؤلاء يملكون ألف جنيه يقدمونها للدكتور العميد .. وما اكثر الذين أصبحوا ، في هذه الايام الرديئة ، يمتلكون بدلا من الالف جنيه الواحدة عشرات ، بل ومئات الالاف من الجنيهات .. دون اى جهد ، ودون أى عرق ، ودون أن يكون فيهم من يساوى جنيها واحدا مما صاروا يملكون .!!

ولقد بادر رئيس جامعة المنصورة الى ايقاف « الاستاذ .. الدكتور .. العميد » عن العمل واحالته الى التحقيق . نشرت ذلك النبأ المفجع ، بكل تفاصيله ، صحيفة معارضة . ومر يوم واحد فحسب ، واذا بصحيفة « الاهرام » الصادرة بتاريخ الاربعاء ١٨ مايو تطالعنا ، فى صفحتها الاولى ، بنبأ يقول : « ان رئيس جامعة المنصورة أصدر قراراً بايقاف امين عام الجامعة واثنين من اساتذة كلية الهندسة عن العمل واحالتهم الى المجالس التاديبية المختصة بعد ان وجهت اليهم النيابة

الكلية بالمنصورة تهمة الاضرار العمد بالمال العـــام .. والتكسب من الوظيفة واختلاس اموال الجامعة » !!

وقبل كل هؤلاء قرأنا عن أستاذ الطب الذى حول بيته الى «مشرحة خاصة » وراح يعطى طلابه الـــدروس الخصوصية بآلاف الجنيهات !! وكأن مايتكسبه مـــن مهنته لا يكفيه .. على الرغم من أن مهنة الطب قـــد تحولت فى أيدى بعض من يمارسونها الى نوع من التجارة يعتبر من اكثر أنواع التجارة ادرارا للربح الحلال .. او الحرام .

فأى خطب فادح هذا الذى حل بساحات جامعاتنا التى كانت فى الثلاثينات والاربعينـــات ، وحتى فى الخمسينات ، نظيفة ، ومهيبة ، وجليلة ؟!

ومن ياترى المسئول عن هذا الخطب الفادح الذى حل بجامعاتنا التى كانت ، حتى الأمس القريب ، مقدسة كساحات القضاء سواء بسواء ؟!

● هل هى النظم المعمول بها اليوم ، والتى جعلت من يستحق .. ومن لا يستحق ـ مادام قادرا على التسلق كشجرة اللبلاب ـ قادرا ، بالتالى ، على الوصول الى قمة القيادة فى الجامعات ؟!

● أم هى الطريقة التى أضحينا نختار بها رؤســـاء الجامعات ونوابهم ، والتى تعتمد ـ اساسا ـ على مدى اتصال هؤلاء ، واولئك ، بمواكب السلطان ؟!

● وهل اصبحت هذه الطريقة هى الفيصـــل فى اختيار الرجال لهذه المناصب التى لا يصلح لها ـ بالقطع ـ الا ذوى العلم والعفة والصلابة والكبرياء ؟!

● أم ان المسئول عن هذا كله هو ذلك « الهـــرم

المقلوب » الذى أوحى لكثير من ضعاف النفوس فى كل مجال ، وليس فى مجال الجامعات فحسب ، بمحاولة اللحاق ، من أى طريق .. وبأى طريق .. بملوك الانفتاح وصعاليكه .

اية مصيبة هذه التى حلت بنا واجتاحت ، بين كل ما اجتاحت من قيمنا ورموزنا ، ساحات الجامعات ؟!

واين ، آذن ، يجد شبابنا آلقدوة .. والمثل الاعلى .. اذا كان الذين يفترض فيهم أنهم « القدوة » .. وانهم « المثل » يتساقطون امامهم تماثيل محطمة على هـــذا النحو الاليم .. وبهذه الصورة المفجعة ؟!

على اننا لا ننكر ـ ونحن نتساءل : متى .. وكيف .. ومن هو المسئول عن هذا الخطب الفـــادح الذى نزل بساحات الجامعات ـ ؟! لا ننكر ، مطلقا ، ان بين صفوف أساتذة الجامعات ـ كبارهم وشبابهم على السواء ـ يوجد كثيرون .. وكثيرون ـ جديرون حقا بكل الثقة .. وجديرون أيضا بكل الاكبار والاحترام . لكنهم للأسف الشديد محاصرون .. محاصرون بكل أسباب المرارة ، والتعاسة ، والاحباط التى ينشرها فى طريقهم آخرون يحملون فى مقدمة مؤهلاتهم ، كل خصائص « شجرة اللبلاب » .. وبالتالى ، فهم يتسلقون .. ويتسلقون . ويتسلقون .!!!

فهل من منقذ ؟!

هل من منقذ يعيد الى جامعاتنا قداستها ، وجلالها ، وكبرياءها ، وارتفاعها بنفسها ، وبقيمها ، فـــوق أى انحراف .. وفوق كل انحرف ؟!

لتكن نقطة البدء ، هنا ، محاولة جادة .. مخلصـــة

وواعية لتحصين تلك الصفوة من رجال مصر ضد سموم ذلك « الهرم المقلوب » الذى ــ فى ظله ــ ذهب أهل القمة الى القاع .. وصعد أهل القاع الى القمة !! والذى أضحى مستحيلا ــ فى ظل وجوده واستفحال شروره ــ أن يحتفظ كثيرون بنقائهم .. وبطهارتهم وبنظــافة أيديهم .

وليس بجائز لنا ، ونحن نفكر فى هذا كله ، ان ننسى تلك العبارة الممتلئة صراحة وصدقا ، والتى قالها واحد من الاساتذة الكبار فى كلية الحقوق بجامعة الاسكندرية للرئيس الراحل انور السادات عند اجتماعه بهم فى ناديهم ــ قال له ، وهو يحدثه عن الاوضاع الماليــة لاساتذة الجامعات : **« نحن ياسيادة الرئيس نكتفى بالفرجة على الفاكهة ، بينما آخرون انت تعرفهم يشترونها بالصناديق »** !!

نعم .. هل من منقذ للجامعات مما هى سائرة اليه ، بفضل مانشره فى مجتمعنا « ملوك الانفتاح وصعاليكه » ، من سلوكيات مدمرة كفيلة بأن تأتى على المجتمع كله ، من أساسه ، وليس على الجامعات .. وأساتذة الجامعات .. وحسب .

أنهم يقتلون الشعب .. !!

أوشك ان يكون مستحيلا ، هذه الايام ، ان تطلع علينا صحف الصباح دون ان تحمل الينا خبرا .. أو اخبارا عن قيام السلطات بضبط كميات هائلة من المخدرات بكل صنوفها والوانها القاتلة : فمن هيروين .. الى كوكايين .. الى حشيش .. الى افيون .. الى حبوب من كل صنف ــ وهي في طريقها الى أبناء الشعب لكى تدمر طاقاتهم ، وتستذل ارادتهم ، وتفنى أجسادهم، وتحولهم الى عبيد أرقاء لهذا النوع أو ذاك من انواع هذه المخدرات القاتلة التى لابد وان تحيلهم ــ طال الوقت ام قصر ــ الى مجرد أشباح لا تقوى على شيء .. ولا تملك من ارادتها مايجعلها قادرة على أن تفعل شيئا .. اللهم الا المزيد من السقوط في مهاوى الضياع والجريمة والتشرد .

ولقد بات واضحا ــ وضوح الشمس ــ ان المسألة لم تعد مسألة تجارة شريرة .. يمارسها رجال شريرون .. ونساء شريرات . وأنما المسألة أشد فداحة وخطرا من ان تكون كذلك . فان ضخامة كميات المخدرات ، من كل صنف ولون ، ألتى تقوم السلطات المسئولة بضبطها كل يوم تقريبا وهى فى طريقها الى

داخل البلاد : اما بالبحر .. او بالبر .. او بالجو .. انما هى مؤشر خطير .. خطير .. يصرخ فينا بأعلى الصوت : **« ان شعبنا اضحى مستهدفا بهذا النوع من « القتل البطيء » الذى يحول « قوته الضاربة » المتمثلة فى شبابه .. وفى صناعه وعماله .. الى مجرد قوة مهزومة من داخلها .. وعاجزة ، كل العجز ، عن العمل .. وعن الانتاج .. وعن العطاء الحقيقى .. ايا كانت صور العطاء واشكاله . »**

وما اظن انه بغائب عن وعى الواعين منا ان هذه الهجمة الشرسة من هجمات « الموت الاسود » الذى تحمله معها تلك الكميات الهائلة من المخدرات المتدفقة ، من كل صوب على بلدنا .. قد جاءت متزامنة مع دعوة جادة .. صادقة ومخلصة .. لزيادة الانتاج فى كل موقع وفى كل مصنع .. فى القطاع العام ، وفى القطاع الخاص ، وفى كل مكان تدور فيه عجلة عمل . ومستحيل ان يكون هذا « التزامن » بين هذه الهجمة الشرسة من هجمات ذلك « الموت الاسود » وبين تلك الدعوة الحارة .. الصادقة والمخلصة .. لزيادة الانتاج ، قد جاءت مصادفة أو اعتباطا .. وانما هى ــ وبالقطع ــ مخطط شرير .. مرسوم ومدروس .. ومتحددة ــ عند من رسموه ودرسوه ــ كل مراميه .. وكل اهدافه وابعاده !!

ومتى كان الامر كذلك ــ وكل المؤشرات تقطع بانه لكذلك ــ فلابد ، اذن ، من اجراء يتناسب فى شراسته وهذه الهجمة الضارية التى يشنها « تجار الموت » على قوتنا الضارية » .. على شبابنا وعمالنا وصناعنا .

ان القانون الالهى صريح ، كل الصراحة ، فى ان « من

قتل يقتل)) .. كما ان القانون الوضعي صريح هو الآخر، كل الصراحة ، في ان ((من قتل يقتل)) . واذن فلا ينبغي ان يكون هناك تردد ، ولا شبه تردد ، في تطبيق عقوبة ((الاعدام)) على كل من يضبط متلبسا بتهريب المخدرات الى داخل البلاد،او بالاتجار فيها .. وعلى ان يتساوى في الخضوع لهذه ((العقوبة الرادعة)) من يحاول ان يهرب أو يتاجر في جرام واحد بمن يحاول أن يهرب او يتاجر في الف جرام .. فكلاهما ، بالتأكيد ، قاتل .

وفي يقيني انها لن تكون غير مرة .. مرة واحدة .. او مرتين على اكثر تقدير .. يحكم فيها ـ ومعجلا ـ باعدام واحد او اكثر من هؤلاء الذين يحترفون ممارسة جريمة ((القتل البطيء)) في ابناء شعبنا ، حتى ينقطع دابر كل شيء .. ويتوقف ـ مرغما ـ ذلك الاعصار الجارف الذي يستهدف ((قوتنا الضاربة)) في صورة مخطط شرير .. مرسوم ومدروس .!!

لقد فعلها « سيكوتوري » ، من قبل ، في غانا . جعل « الاعدام » جزاء وفاقا لكل من يتجر في المخدرات .. وأيضا لكل من يتعاطاها ، فحمى بذلك شعبه من السقوط في مهاوى الهلاك . وفي نيجيريا ، أخيرا ، قضت احدى المحاكم باعدام آمرأة ضبطت وفي حوزتها كمية من المخدرات . فهل يعقل ان نكون نحن أقل حرصا على قوة وعقول وابدان ابناء شعبنا من غانا .. ومن نيجيريا ؟!! ومن المؤكد أن أيا من الشعبين : الغاني .. والنيجيري .. لا يمكن أن يكون مستهدفا ، من قبل « تجار الموت » ، بمثل مانحن مستهدفون . فان «مصر» قوة .. قوة لها وزنها ، ولها خطرها ، ولها تأثيرها الذي

يدرك هؤلاء المخططون الشريرون انه ، وان كان قد غاب لبعض الوقت ، فانه لن يغيب كل الوقت ، ولن يغيب الى الابد . ومن هنا كانت « مصر » .. وكانت « قوتها الضاربة » ممثلة في شبابها ، وفي عمالها وصناعها ، مستهدفة .. ولسوف تظل « مصر » مستهدفة من هؤلاء الشريرين الذين يخططون ، ويدبرون ، لقتلها .. بقتل طاقات وارادات وعقول أبنائها . نعم انهم ـ وبكل سبق الاصرار والتعمد ـ يقتلون الشعب .. فاقتلوهم قبل ان يقتلوا الشعب .. ولا تأخذكم بهم ذرة من رحمة . فليس ثمة رحمة بمن لا يرحم . وليس ثمة رحمة لم يحاولوا ـ وعن اصرار وتعمد ـ قتل شعب بأكمله .

عبد الناصر .. المفترى عليه والمفتـرى علينـا .. !!

تحت هذا العنوان المثير ، نشر الكاتب الكبير « انيس منصور » .. سلسلة من المقالات خلاصتها جميعا : « ان عبد الناصر كان طاغية . وكان ظالما . وكان يتلذذ باذلال الناس وآهدار كرامتهم . وكان « ماركسيا » . ولانه كان « ماركسيا » فقد كان « كافرا » لا يؤمن بالله ، ولا برسله، ولا بكتبه . وانه قبل هذا كله .. او بعد هذا كله .. قد ذبح « مصر » وشرب من دمائها .. ولم يتردد في أن يقف بقدميه فوق جثتها .. لكي تطول قامته اكثر ، وترتفـع اكثر !! وانه في خلاصة الخلاصة . كان تجسـيدا لثلاثة من أشهر الطغاة الذين عرفهم تاريخنا المعاصر .. وهم : « هتلر » .. و « موسوليني » .. و « سالازار » وثلاثتهم ـ كما هو معروف ـ أشقوا شعوبهم ، واذلوها ، واضاعوا كرامتها وعلموها كيف تخضع .. وكيف تخنع ، وكيف تسير وراءهم مثلما يسير « القطيع » وراء زعيمه !!

ولا جدال في ان « أنيس منصور » حر تماما في ان يرى « عبد الناصر » على الصورة التي يجب ان يراه عليها . ولكن .. لا جدال أيضا في ان عشرات الملايين من الناس .. هنا في مصر .. وفي سائر الارض العربية على طول امتدادها من المحيط الى الخليج .. لا يشاركونه هذه « النظرة » ولا يرون في « الصورة » التي يحاول ، بقلمه البارع .. والرشيق .. والمطيع له الى أبعد حدود

الطاغة ، ادنى شبه من « الرجل » الذى عرفوه .. واحبوه .. ورأوا فيه « رمزا » لبداية تحررهم من نير الاستعمار .. ومن نير الاقطاع .. ومن نير تسلط راس المال على مصائر العباد ، ورقاب العباد !!

ولقد يكون هؤلاء الملايين من البشر .. هنا فى مصر .. وفى سائر الارض العربية على طول امتدادها من المحيط الى الخليج .. على حق فى نظرتهم هذه الى « عبدالناصر » وقد لا يكونون .. لكن هذا لاينفى ، مطلقا ، ان هـــذه « النظرة » قائمة .. وانها موجودة .. وانها ربما تكون قد ازدادت قوة بفضل تدافع كثير من الاحداث المؤسفة والمحزنة ، والمريرة التى اتخذت من سائر الارض العربية على طول امتدادها من المحيط الى الخليج ، مسرحا تدوى فى جنباته .. وتهز كيانه وبنيانه بتلك الصورة المــروعة التى جعلت هذه الملايين من اصحاب هذه « النظـــرة الخاصة » الى « عبد الناصر » لا يبرحون يرددون : « انه لو كان بيننا .. لما جرى شىء واحد من كل ذلك الذى يجرى ، ولما استطاع « اقزام » لا هم فى العير .. ولا هم فى النفير أن يجترئوا على « مصر » بمثل ما اجترأوا عليها بالامس .. واليوم .. وكل يوم !!

هكذا يقول هؤلاء الملايين من البشر . ولقد يكونون . ايضا ، على حق فى هذا الذى يقولونه .. وقد لايكونون .. لكن المؤكد انهم يقولونه .. وهم يقولونه ليس عــن حماس فحسب .. وانما عن ايمان حقيقى ، واقتناع صادق .

واعود بعد هذا الى تكرار القول : ان « انيس منصور » حر تماما فى اختيار « النظرة » التى يحب هو شخصيا ،

ان ينظر بها الى « عبد الناصر » . كما انه حر تماما فى اختيار « الصورة » التى يحب هو شخصيا ان يصوره عليها . ولكن .. بشرط ، وهو ان لا تأتى هذه «النظرة» ولا هذه « الصورة » متناقضة تناقضا كبيرا ولا صغيرا مع « نظرة اخرى » سبق ان نظر بها ، هو نفسه الي « عبد الناصر » ولا مع « صورة أخرى » سبق له هو نفسه ان رسمها لعبد الناصر .. الامر الذى يضع قراءه الكثيرين ، والمنتشرين فى طول الارض العربية وعرضها ، فى حيرة بالغة من امرهم حينما يقرأون لكاتبهم الكبير .. والاثير .. مايقوله اليوم فى « عبد الناصر » .. ثم يتذكرون ماقاله فيه ، بالامس الذى لم يزل قريبا جداً .. ولم يغرق ، بعد ، فى « بحور النسيان » .. وماقاله « أنيس منصور» بالامس القريب ، فى « عبد الناصر » هو هذا :

●● « لقد كبر الشعب كله مع « عبد الناصر » لم يكن للناس حساب ، فأصبح لهم حساب . لم يكن للكرامة الانسانية وزن ، فصار لها وزن ، ولم يكن من حق أحد ان يتكلم عن الحق ، فأصبح من حق كل انسان ان يناقش الحق . والعدل . والوحدة . والتضامن والتماسك فى الداخل والخارج . ولم يكن هذا الوطن ملكا لاهله ، فأصبح ملكا للجميع ..

« وكان « عبد الناصر » واجهة شريفة .. ومشرفة لمصر وللعالم العربى .. وكانت « مصر » صغيرة ، فأصبحت كبيرة ، وكانت واحدة فى الدول ، فجعلها « عبد الناصر» قاعدة للحرية .. ومطارا للثورات .. وحصنا أمينا لكل صاحب رأى ، او صاحب فلسفة ، فمن دخلها فهو آمن على نفسه .. وعلى رأسه » !!

هذا ماقاله « انيس منصور » بالامس القريب في « عبد الناصر » وليس من شك في أن قراءه الكثيرين .. والمنتشرين في طول الارض العربية وعرضها سوف يتوقفون طويلا أمام كلماته الواضحة هذه .. التي ليس بها أدنى التواء ولا عوج .. وقد استبدت بهم الحيرة ، واستبد بهم التساؤل : اى القولين في « عبد الناصر » نصدق ، وايهما نكذب . ايهما نأخذ ، وايهما ندع . بأيهما نؤمن ، وبأيهما نكفر ؟!!

ولست أعرف ، حقيقة ، بماذا أجيب على تساؤلات هؤلاء القراء . لكنني واثق من أن « انيس منصور » يعرف .. وهو قادر ، بالتأكيد على ان يجيب ..

على أن اغرب ما أرتضى الكاتب الكبير ان يقوله عن « عبد الناصر » ، في معرض النيل منه . والتعريض به ، هو مارواه نقلا عن الرئيس السوري الراحل « شكري القوتلي » من أن المغفور له الملك محمد الخامس ملك المغرب ، رأى والد « عبد الناصر » أثناء احتفال اقامه لتكريم الزعيم الروسي « خروشوف » ينحني على يد ابنه .. ويقبلها !!

ويكمل « أنيس منصور » روايته قائلاً : وسكت الرئيس والملك .. ثم عاد الملك يهمس في أذن القوتلي: ان رجلا يفعل هذا مع والده .. فما الذي لن يفعله مع بقية خلق الله ؟!!

أنها رواية مستحيل أن يكون هناك عقل - مهما بلغ من سذاجة - مستعد لان يصدقها . نعم .. مستحيل ان يكون هناك عقل مستعد لان يصدق انه يوجد على الارض أب يرتضي لنفسه أن ينحني على يد

ابنه ويقبلها . كما أنه مستحيل . بنفس الدرجة ، أن يوجد على الارض ابن يرتضى أن ينحنى ابوه على يده ويقبلها . ويشهد الله انني رايت بعيني راسي اكثر من لقاء لعبد الناصر مع ابيه . ولم يحدث مرة انى رايت احدهما يقبل يد الآخر .. وانما كنت ارى احتراما عميقا ومحسوسا وملموسا من كلا الطرفين للآخر .. وبغير تزيد ولا افتعال ولا اسراف !!

ولست أدرى كيف ارتضى عقل ذكى ومتوهج مثل عقل « انيس منصور » أن يصدق مثل هذه الرواية التى استطيع ان اقطع بأن أحد رواتها كاذب ولن يحتضنها ، ويتبناها ، ويتحمل امام الناس .. وامام نفسه .. وضميره .. مسئولية اذاعتها ومسئولية نشرها ؟!!

لكن الشيء الذى قاله « انيس منصور » .. واعتصرنى حزنا وأسى ، اكثر من اى شيء آخر قاله فى شخص « عبد الناصر » ، هو ذلك الذى قاله عن أهله .. وقومه .. عن « فلاحى مصر » الذين يتكون منهم بغير مغالاة ثلاثة ارباع الشعب المصرى . قال « انيس » :

● كان عبد الناصر على حق عندما جعل نصف أعضاء مجلس الشعب من الفلاحين الذين نشأوا فى الريف يحنون رءوسهم للعمدة الجالس على المصطبة .. ويضربهم « بالجزمة » فيقولون له : ضربك شرف ياعمدة !!

هل كان هذا يحدث يا انيس .. ؟!!

هل كان « العمدة » يضرب أهلك .. وقومك ..

وشعبك « بالجزمة » فيقولون له : « ضــربك شرف ياعمدة » ؟!!

وهل الى هذا المدى نجح « جرحك الشخصى » من « عبد الناصر » .. وسخطك الشخصى عليه فى ان يجــرك ــ وانت الذكى الاريب ــ الى كل هــذه المحاذير ؟ !!

على كل حال .. فلنسلم جدلا بما لايصح ، ولا ينبغى ، ولا يجوز ، أن نسلم به .. وهو : « ان العمدة فى وقت ماكان يضرب اهلنا . وقومنا «بالجزمة» فيقولون له : « ضربك شرف ياعمدة » . نعم فلنسلم جدلا بما لا يجوز .. ولا يصح .. ولا ينبغى ان نسلم به ثم لننظر ماذا يحدث اليوم على طول ارض مصــر وعرضها ؟!

ان احدا لا يجرؤ . ولا يقدر . ولا يستطيع ان يمد يده ، ــ وليس جزمته ــ الى راس .. او الى وجه .. أصغر « فلاح » او اصغر « عامل » .. لقــد صار ذلك شيئا مستحيلا .. او لعله صار شيئا دونه قطع الرقاب . واذا كان يوجد على ارض مصر كلها «انسان» يرجع اليه الفضل الاول .. والاخير .. فى هذا التحول الانسانى ــ والاجتماعى ــ الكبير ــ والخطير ــ والعميق .. فلن يكون هذا « الانسان » غير « عبد الناصر » نفسه ولا احد سواه ..

الا اننى على الرغم من ذلك كله لا اشارك الشاعر نزار قبانى « كذبه الشعرى » .. واقول معــه : شاعر العراق العظيم « مهدى الجواهرى » صــدقه « ان عبد الناصر كان آخر الانبياء » !! لكننى اقاسم

شاعر العراق العظيم « مهدى الجواهرى » صدقه الشعرى .. واقول معه : « ان عبد الناصر كان انسانا .. وكان انسانا عظيم الامجاد .. عظيم الاخطاء » .

وبين هذين القوسين الواقعيين : « الامجاد » و « الاخطاء » تنحصر شخصية الرجل ، وينحصر دوره ، وينحصر بالتالى أو ينبغى أن ينحصر ، تحليله وتقويمه ... ووضعه بايجابياته وبسلبياته معا ، وليس بايجابياته وحدها ، ولا بسلبياته وحدها ، فى مكانه الطبيعى بين « صناع التاريخ » .. أما كيل الشتائم له بذكاء او بغير ذكاء .. بفظاظة او باناقة .. فذلك أمر فى مقدور أى انسان أن يفعله .. دونما أى ضرورة لان يكون كاتبا كبيرا . ولا صاحب قلم ذكى ورشيق .. مثل قلم « انيس منصور » !!

حرية الصحافة .. وحوار النجوم .. !!

على يمين الصفحة الثالثة من جريدة « الاخبار » .. وعلى يسارها .. جرى حوار لم يتواصل ، بين نجمين لامعين من نجوم القلم : « جلال الدين الحمامصى » .. و « محمود عبد المنعم مراد » . وكانت « حرية الصحافة » هى موضوع ذلك الحوار . « جلال الدين الحمامصى » – على يمين الصفحة – يرى : انه على الرغم من هذه الجرعة الهائلة من الحرية التى اصبحت صحافتنا : قومية .. ومعارضة .. تتمتع بها فى عهد « مبارك » ، الا ان الحاجة لم تزل ملحة الى « صحيفة مستقلة » .. لا تنتمى الى الحكومة ولا الى المعارضة . وانما تنتمى الى « كل مصر » ولا يسيطر عليها الا ضمير كتابها ومحرريها . وهى « صورة » اقرب ماتكون الى صورة جريدة « الاهرام » قبل تأميمها فى سنة ١٩٦٠ .

ولا يختلف « عبد المنعم مراد » – على يسار الصفحة – من حيث المبدأ مع يمينها . الا انه يرى ان « القدر العظيم » من الحرية الذى تتمتع به صحافتنا القومية هذه الايام ، يمكن أن يجعل من امنية « الصحيفة المستقلة » عن هؤلاء .. واولئك .. « امنية مؤجلة » الى ظروف افضل . لكن « يمين الصفحة » لايوافق « يسارها » على رايه .. ويزداد تمسكا بامنيته .. وبأن كل الظروف التى

يمر بها وطننا فى الوقت الحاضر ، ليست ضد تحقيق هذه الامنية .. بل لعل هذه الظروف نفسها ان تكون موجبة لوجود هذه « الصحيفة » التى يتطلع اليها « الحمامصى » مستقلة عن الجميع .. وملكا ، فى ذات الوقت للجميع .. لمصر كلها .

وانا مع « جلال الدين الحمامصى » ـ على طول الخط ـ فى « امنيته » التى اعترف بانها نفس امنيتى التى طالما راودتنى ، وطالما حدثت بها نفسى . وليس من شأن هذه « الامنية » ان تنفى عن صحافتنا : قومية .. ومعارضة . ذلك القدر العظيم من الحرية الذى أصبحت تتمتع به فى عهد « مبارك » .. والذى لم يسبق لها ـ والحق احق بأن يذكر ويسجل ـ ان تنسمت ذرة منه فى عهد الرئيسين الراحلين : عبد الناصر .. والسادات .

●● ففى عهد « عبد الناصر » . كان مفهوم « حرية الصحافة » عنده . يعنى : « حرية صحيفة واحدة » .. هى « الاهرام » . و « حرية صحفى واحدة » .. هو : « محمد حسنين هيكل » . وفيما عدا هذا « الصحفى » .. وهذه « الصحيفة » .. لم تكن هناك حرية لصحفى .. ولا لصحيفة . وكانت هذه ـ ولا سبيل هنا لمغالطة النفس .. ولا لمغالطة الآخرين ـ واحدة من اكبر اخطاء « عبد الناصر » .. اذ ترتب عليها ـ طبقا « لقانون السببية » ـ ان اصيبت كل الصحف الاخرى بداء « الكساح » . فلم تعد تستطيع ان تجرى . ولم تعد تستطيع ان تمشى . ولم تعد تستطيع الا ان تنكفىء على نفسها : تنظر .. وتعجب ـ ويذبحها من الاعماق الحزن

على حالها .. وكانت النتيجة النهائيـــة ان فقـــدت « الصحافة المصرية » دورها الرائد .. والمؤثر .. والفعال في المنطقة العربية بأسرها ، وهـــو الدور الذى ظلت صحافتنا محتفظة به لنفسها.. منذ ان كانت فى «مصر» صحافة .. والى أن وقعت واقعة « التأميم » التى دخلت بها صحافتنا كلها ــ فيما عدا « الاهرام » طبعا ــ دائرة التنفس بالامر .. والتكلم بالامر .. والتلفت نحو اليسار او نحو اليمين .. بالامر !! . وكانت هذه فرصة لصحافة لبنان ــ ليس كمثلها فرصة ــ لكى تسحب « السجادة » بالكامل من تحت أقدام « الصحافة المصرية العريقة » .. ولكى تحتل ــ بمفردها ــ الساحة العربية كلها .. تنطلق فيها متحررة من كل قيد .. ومن كل شرط . ومن ثم ــ راحت تزدهر ــ وتتفوق ــ وتتقدم ــ بعد اذ خلت لهــا الساحة تماما من صحافة كانت ناجحة ــ وقوية ــ وقادرة فى كل وقت ، على أن تسد فى وجهها على كل منـافذ الطريق .

●● ثم جاء « السادات » ..

جاء ليعطى الصحافة قدرا من الحرية . لكنها ــ والحق هنا أيضا أحق بأن يذكر ويسجل ــ كانت « حرية نهش عبد الناصر » .. ونهش عصره .. ونهش انجازاته ــ كل انجازاته ــ ف « اشتراكيته » ، على سبيل المثال ، لم تكن سوى « خطة ماكرة » ابتدعها الرجل ابتداعا لكى يصل من ورائها الى هدف حدده مسبقا .. وهو : « افقار الاغنياء .. وزيادة الفقراء فقرا. » !!

و « سده العالى » لم يكن هو الآخر سوى « مشروع

تخبيك » .. الغاية الوحيدة منه هي : « تخريب الارض الزراعية » .. وتعقيم خصوبتها » .. !! اما « ضـــرب دولة الاحتكارات الاجنبية التى كانت متسلطة على جميع مقدراتنا » .. فقد كان عملا لم ينطلق من اى منطلق وطنى .. او ثورى .. وانما انطلق من منطلق الحقد .. والحقد وحده .. وان الرجل لم يضرب ضربته هذه الا بهدف ان يشعر الجميع بأنهم « يأكلون خبزهم » من بين اصابعه .. ولا شيء غير ذلك !!.

وهكذا .. وهكذا .. الى آخر هذه النوعيـــة مـــن « المقولات » التى يشهد كل منصف بأنه لم يكن هناك اى قيد .. من اى نوع . لا على قولها ، ولا على تكرارها ، ولا على التهويل فيها .. وتجسيدها .. لعلهـا تسهم فى « دفن » الرجل ، وفى طى صورته ـ وسيرته . ومسيرته فيذهب من عيون الجماهير . ومن قلوبها ، وعقولها . وكأنه لم يكن .. !!

لكن شيئا من ذلك الذى أريد بالرجل لم يحدث . وبقى على النكران . وعصيا كذلك على كل أولئك الذين استنفدوا « عبد الناصر » حيا .. عصيا على النسيان . وعصـــيا كل تواهم ، وكل جهودهم فى محاولات فاشلة .. هدفها طمس صورته .. وطى سيرته . ومسيرته !!.

وفيما عدا « حرية نهش عبد الناصر » ، ونهش عصره ونهش انجازاته كلها .. فان « القيـــد الساداتى » على « الصحافة » كان حديديا . وكان قويا . وكان مفروضا على كل كلمة .. وعلى كل همسة . ومازلنا جميعا نذكر كيف ان صحفيا عملاقا مثل « مصطفى أمين » لم يتردد

« السادات » لحظة في أن يصدر اليه أمرا بالتوقف عن الكتابة . . لانه انتقد في « فكرة » مسلك أعضاء « حزب مصر » الذين تخلوا عن حزبهم . . و « هرولوا » مسارعين الى الانضمام « للحزب الوطني . . لمجرد ان « السادات » هو الذي انشأه . مع ان « السادات » لم يكن بعيدا ، بأية صورة من الصور ، عن انشاء « حزب مصر » . . وان قد تخلى عن رئاسته لرئيس وزرائه . . السيد ممدوح سالم .

اما « صحافة المعارضة » . . فكلنا يعرف كم كان « السادات » دائم الضيق بها . . شديد السخط عليها . فصادرها اكثر من مرة . واوقفها أكثر من مرة . وعندما وصل به ضيقه بها ، وسخطه عليها الى ذروته . . يتردد في ان يسلط عليها « مخالب ديموقراطيته . . . وانيابها ففرمتها فرما » على حد ذلك « التعبير الخاص » الذي كان مفضلا عنده . . واثيرا لديه !! . .

●● ثم جاء حسني مبارك . .

جاء مستفيدا في هذا المضمار ، والى ابعد حدود الاستفادة ، من تلكما التجربتين السابقتين عليه . . ومستوعبا تماما لكل ابعادهما . . ومن ثم ، لم يختص برضائه صحيفة بذاتها . . ولا صحفيا بعينه . . كما لم يختص صحيفة اخرى ، ولا صحفيا آخر بسخطه أو بغضبه . . وانما جعل الصحفيين كلهم والصحف كلها سواء لديه . لا فضل لاحدهم على الآخر الا بعمله . . والا بجهده . . والا بعطائه الصادق لصحيفته . ولبلده . من خلال صحيفته . ومن هنا انطلقت « الصحف القومية »

التى كان « السادات » حريصا على انتهاز كل فرصة لكي يلومها . ويعنفها . ويصارح أهلها بغضبه منهم وعليهم ..

أقول : انطلقت « الصحف القومية » فى عهد مبارك ، تمارس حريتها كاملة ، وتمارس دورها كاملا . وتمارس « نقدها المر » لأمور كثيرة .. ولاناس كثيرين .. فى أعلى مستويات المسئولية . وهى ممارسة أحسب ان «الصحف القومية » كانت قد نسيتها ، تماما منذ ان دخلت «حظيرة التأميم » فى سنة ١٩٦٠ ، والى ان وقعت واقعة «المنصة» التى جاء « مبارك » ، فى أعقابها ، الى الحكم .. عاقدا العزم على أن يعطى صحافتنا كلها : قومية .. ومعارضة « كل الحرية » التى تعينها على استرداد مكانها .. فى أقصر وقت ، وبأقوى ماتستطيع ..

ولم تكن « صحافة المعارضة » اكثر ترفقا ب « حسنى مبارك » منها ب « السادات » . فلم تقـل فيه . وفى منهاجه ، وفى اسلوب حكمه .. شيئا اقل مما كانت تقوله فى « السادات » وفى منهاجه ، وفى أسلوب حكمه .. بل لعل الصحيح أن « صحافة المعارضة » — اعتمادا على مناخ الحرية .. والتسامح .. الذى نشره « مبارك» من حوله — انطلقت تقول فيه ، وفى منهاجه ، وفى أسلوب حكمه .. مالم تقل شيئا منه فى « السادات » .. على الرغم من ذلك البون الشاسع الذى يباعد بين الرجلين . والاسلوبين والمنهاجين فى الحكم . وفى الحياة ..!! بل لقد عمدت بعض هذه الصحف — كنوع من اصطناع الجراة والشجاعة .. أو استعراض القوة والعضلات —

ان تتجاوزه ، عند مخاطبتها لـ « رمز الدولة .. ورئيس كل المصريين » ...

وربما يكون الرجل قد ضاق صدرا بهذا التجاوز .. وربما يكون قد عبر — صراحة — عن هذا الضيق فى مناسبة .. أو مناسبتين .. ولكنه ، مع ذلك ، ظل شديد الحرص على الامعان فى التمسك بالحرية .. واستبقاء الامر فى « دائرة العتاب » من الكبير للصغير ، ولم يخرج به — مرة واحدة — الى دائرة التوقيف . او المحاكمة .. أو المصادرة . او التهديد بـ « المفرمة » .. او بـ « المخالب والانياب » .

أن الصحافة ، بغير حرية حقيقية . وصادقة . وكاملة ، لن تخرج — فى أحسن صورها — عن كونها مجرد « كمية من الورق » .. مسكوب عليها قدر من « الحبر الاخرس » الذى لا يقول شيئا . ولا يجرؤ . ولا يستطيع . ومن هنا ، تبرز « القيمة الحقيقية » لهذه الجرعة الهائلة من الحرية التى هيأها « مبارك » لكل صحافتنا : قومية .. ومعارضة . فدفعت « ماء الحياة » الى شجرتها التى كانت قد اصفرت اوراقها .. وتيبست أغصانها .. وتهيأت هى نفسها للموت عطشا ، أو للموت اختناقا .. بعد ان قضت ثمانية وعشرين عاما لا تتنفس .. ولا ترتوى !!

ومن هنا ، أيضا ، تبرز « القيمة الحقيقية » لامنية « جلال الدين الحمامصى » بأن تكون لدينا — الى جانب صحفنا التى بدأ « ماء الحياة » يتدفق الى عروقها — « صحيفة مستقلة » .. مستقلة تماما عن الحكومة ، ومستقلة تماما عن المعارضة ، ومستقلة تماما عن كل تيار ظاهر او خفى .. سياسى كان او دينى ..

انني آكاد اثق بأنه فى اليوم الذى تتحقق لنا فيه مثل هذه « الامنية » . . فان الارض سوف تنشق عن « جيش جديد » من المفكرين والكتاب الذين يحرصون على الابتعاد بأنفسهم عن أن « يصنفوا » بأنهم مع الحكومة . . وضد المعارضة . او بأنهم مع هذه . . وضد تلك . وهذا . فى حد ذاته ، كسب هائل . كسب يساوى أن تبقى « الامنية » على قيد الحياة . . الى اللحظة التى سوف تراها فيها الجماهير « حقيقة واقعة » . .

وانى واثق من انها سوف تراها . وسوف تفرح بها . وسوف تدق لها الطبول . . كما لم تدقها لصحيفة سواها .

الرفاق حائرون .. يتساءلون

يتهامسون :

ـ ان من يقرأ لك دفاعك عن « عبد الناصر » ، دون ان يكون لديه علم بما أصابك على يديه ـ شخصيا ـ في رزقك ، وفى مسيرتك .. يتصور ، على الفور ، انك لابد وأن تكون واحدا من أولئك الذين كانوا ، على أيامه ، غارقين فى « النعيم » الى آذانهم ـ بينما انا اعرف : كم قاسيت .. وكم عانيت .. على مدى اكثر من عشرين سنة ، صودر فيها قلمك .. وأوقفت فيها مسيرتك بقرار شخصي منه ، فهل استطيع ان اجد عندك تفسيرا لهذا الذى يحيرنى فى أمرك ؟

هذا ماقالته لى سيدة فاضلة تعرف عنى الكثير . وتتابع كل ما اكتبه .

وهذه السيدة الفاضلة . ليست هى ـ الوحيدة ـ التى حيرها ، كما تقول ، أمرى . ولا هى ـ الوحيدة ـ التى يحيرها دفاعى عن « عبد الناصر » . كثيرون غيرها ممن يعرفون ماذا اصابنى على يديه ، وحجم ذلك الذى اصابنى .. تتملكهم نفس الحيرة ، وتستبد بهم نفس التساؤلات . فلقد قال لى صديق عزيز قرأ ما جاء فى « أسبوعيات » العدد الاسبق عن « عبد الناصر » ..

ـ فى فقرة من فقرات « أسبوعياتك » فى « آخر ساعة » وجدتك تنسب الى « عبد الناصر » ـ وبصراحة مطلقة ـ « مسئوليته المباشرة » عما أصاب صحافتنا من

« كساح » نتيجة لقيامه بـ « يحبس » الحرية الصحفية عن كل الصحف ، وعن كل الصحفيين .. لحساب صحفي واحد ، وصحيفة واحدة ، ثم وجدتك في « فقرة اخرى » تلت هذه مباشرة ، تدافع عنه « دفاعا مجيدا » في مواجهة أولئك الذين يلذ لهم — على حد تعبيرك — ان ينهشوا شخصه ، وعصره ، وانجازاته جميعا — الا ترى معي ان في هذا شيئا من « التناقض » ، ربما يحتاج منك الى ان تجلوه لي .. ولغيري ايضا ؟

ولهذه السيدة الفاضلة .. ولهذا الصديق العزيز .. وايضا لكل « الرفاق » الذين يرون في موقفي من « عبد الناصر » — بعد كل ما اصابني منه — « لغزا » يحتاج مني لان أجلوه لهم بما يضع حدا لحيرتهم من امري .. لكل هؤلاء اقول :

انني لا ارى في « موقفي » من « عبد الناصر » لغزا .. ولا شبه لغز .. اذ ان الامر عندي — وببساطة شديدة — هو انني تعودت ان انظر الى « الرجل » بكلتا عيني . وأيضا من كل الزوايا . واصمم — انصافا لنفسي .. قبل ان يكون ذلك انصافا له ، ولا انحيازا ولا انبهارا — أن لا انظر اليه ، ابدا ، بعين واحدة .. ولا من زاوية واحدة .. ولانني انظر الى « عبد الناصر » ، كما قلت ، بكلتا عيني .. ومن كل الزوايا .. فلقد كانت النتيجة الحتمية ، والطبيعية ، لذلك . هي ان صارت لي القدرة على أن ارى « أمجاده العظيمة » بعين .. في ذات الوقت الذي صارت لي فيه القدرة على ان ارى ، بعيني الثانية ، اخطاءه التي كانت « عظيمة » هي الاخرى .. والتي كان من بينها — وربما في مقدمتها — ذلك « الكساح » الذي أصاب به

صحافتنا كلها ، وصحفيينا كلهم .. لحساب صحيفة واحدة ، وصحفي واحد !!

وفي يقيني أنه ليس مما ينتقص « مثقال ذرة » من قدر « عبد الناصر » .. ولا من دوره .. ولا من أثره العظيم والخطير في مسار الامة العربية جميعها ، ان تكون له « أخطاء » . فذلك « شيء بشرى » وارد ــ بالضرورة ــ عليه .. باعتباره « بشرا زعيما » .. وليس .. « ملاكا مجنحا » ، ولا « نبيا معصوما » !!

واذا كان « عبد الناصر » قد جنح ، في وقت ما .. وتحت ظروف ما ، الى ان يتعامل مع خصومه الشخصيين وأيضا مع خصوم فكره ، وخصوم ثورته ، بقدر من « القسوة » ، او من « العنف » قليل او كثير ، فليس ينبغي لنا ان ننسى .. ولا ان نتناسى .. ان هؤلاء الخصوم انفسهم هم الذين فرضوا عليه ــ فرضا ــ ذلك القدر القليل او الكثير من « القسوة » .. ومن « العنف » الذى أضطر الى معاملتهم به . والا .. فليعاني الذين يحلو لهم أن ينهشوا لحم « عبد الناصر » ــ حيا .. وميتا ــ على « ثورة واحدة » .. واحدة فقط ــ على مدار التاريخ كله ــ هيأ لها خصومها المدافع ، والقنابل ، والمتفجرات التي يهاجموها بها ، ولكي ينسفوا بها الأرض من تحت أقدامها .. فما كان منها الا ان « ربتت بيدها الحانية » على خدود هؤلاء الخصوم .. ثم رمتهم بالورود والرياحين بدلا من مواجهة رصاصهم برصاصها .. وعنفهم بعنف اقسى واشد ؟!!

ان شيئا مثل هذا لم يحدث على مدار التاريخ ، في اى بلد في العالم قامت فيه « ثورة » تريد ان تهدم «القديم»

لكى تقيم « جديدا » على أنقاضه . لم يحدث هــذا فى فرنسا ، ولا فى روسيا ، ولا فى الصين ، ولا حتى فى اليمن !!

ثم .. لماذا نذهب بعيدا هكذا ..؟!

لماذا نذهب الى فرنسا ، والى روسيا ، والى الصين ، والى اليمن . وعندنا « الأمثلة » قريبة جدا منا فى أنفسنا ـ وعلى أرضنا ـ لكننا ـ للأسف الشديد ـ ننسى .. أو لعلنا نحب أن ننسى .. ولعل الذين يحبون أن ينسوا ربما أكثر من غيرهم . هم أولئك السادة من كتاب التاريخ الذين يتوفرون على كتـابة « تاريـخ ثورة يوليـو » .. و « تاريخ عبد الناصر » !!

●● عندنا « اسماعيل صدقى » .. و « محمد محمود» ـ بل و « مصطفى النحاس » نفسه ـ ولم يكن اى منهم ـ ولا هم جميعا ـ « ثورة » .. ولا « شبه ثورة » .. جاءت وفى نيتها ان « تقلب الأرض » وتحدث فى «تركيبة المجتمع » تغييرا حقيقيا يمتد الى الاعماق .. والى الجذور ومع ذلك ، فلقد كان لكل منهم على حدة .. كما كان لهم مجتمعين .. « مواقف » تميزت بالعنف .. وبالقسوة . مع خصومهم الشخصيين ، وايضا مع خصوم أفـكارهم وتوجهاتهم .. فحكم « محمد محمود » فى سنة ١٩٢٨ بالحديد وبالنار .. وعطل الدستور ، وتعقب الصحف الوطنية ، وزج بخصومه السياسيين فى غياهب السجون واختار مكانه .. وبلا اى مداراة أو خجل ـ بين مكانه .. وبلا اى مداراة او خجل ـ بين « أعداء الشـــعب » الحقيقيين .. والسافرين : « الانجليز » .. و «الملك»!!

وما فعلة « محمد محمود » بالشعب في سنة ١٩٢٨ ، جاء « اسماعيل صدقي » في سنة ١٩٣٠ ، فكرره بنفس حروفه .. ولكن .. بوقاحة اكبر ، وبعنف اكثر !! ولم يستطع « مصطفى النحاس » في سنة ١٩٤٢ أن يتجنب « القسوة » .. ولا ان يتجنب « العنف » في تعامله مع خصومه السياسيين الذين رأى من وجهة نظره انهم يزرعون الارض — من تحته — بالالغام .. وبالمتاعب .. فزج في المعتقل بصديق عمره .. ورفيق نضاله الوطني وكفاحه .. « مكرم عبيد باشا » !! كما أعتقل « على ماهر باشا » .. وكذلك اعتقل من رجال القوات المسلحة « الاميرالاى » احمد فؤاد صادق و « اليوزباشي » انور السادات وقائد الاسراب حسن عزت . والصحفيين : جلال الدين الحمامصي .. وموسى صبري .. وكثيرين غيرهم من العناصر الوطنية الذين لا تحضرني الان أسماؤهم .. والذين كان أشد ما يؤسف له في أمر أعتقال اكثرهم انه تم — بناء على طلب شخصي .. ومباشر — من «سلطات الاحتلال البريطاني » !!

وما فعله ، في سنة ١٩٤٢ « زعيم الاغلبية الشعبية الساحقة » — كرره في سنة ١٩٤٩ رئيس الوزراء ... والحاكم العسكري العام .. « ابراهيم عبد الهادى » .. ولكن بدرجة من العنف ، لعلها كانت أفظع وابشع .. ولعل خصومه السياسيين أن يكونوا هم المسئولين عن هذا « الأسلوب » الافظع .. والابشع الذي عاملهم به .. ولعله هو لم تكن لديه فرصة للاختيار .

ثم جاءت « ثورة يوليو » فحاكمت « ابراهيم عبدالهادى» وحكمت عليه محكمتها بالاعدام شنقا .. ثم خفف « مجلس

قيادة الثورة » الحكم الى « الاشغال الشاقة المؤبدة » لقاء مافعله بهؤلاء الخصوم ، ثم مالبث هؤلاء الخصوم انفسهم أن أوقعوا الثورة معهم فى نفس المأزق الذى سبق لهم ان أوقعوا فيه « الرجل » الذى حاكمته الثورة وحكمت عليه بالاعدام بسببهم .. ومن أجلهم !! ومن ثم ، كان « امرا مقضيا » ان تعاملهم الثورة .. وان يعاملهم « عبد الناصر » بأسلوب لعله كان اشد قسوة . ذلك لان الخطر نفسه كان قد صار اشد هولا . ولان المعركة بين الطرفين كانت قد اسفرت عن وجهها تماما ، ومضت تلخص نفسها فى كلمتين اثنتين هما : من الذى يسبق، فيقضى على الاخر؟

ومن المؤكد انه لم يكن هناك بديل .. ومن يقول ، بغير هذا ، انما يكذب كذبتين : كذبة على نفسه .. وكذبة أخرى على التاريخ !!

ولا جدال فى ان من حق الذين أصابهم « عبد الناصر» — شخصيا — او اصابتهم ثورته .. وقراراتها .. وتوجهاتها .. بجرح أو بجراح — لا جدال فى ان من حقهم جميعا أن يتوجعوا .. ومن حقهم جميعا أن يتألموا . فذلك حق مشروع لهم لا يملك أحد ان يستنكره منهم ، ولا ان ينكره عليهم . ولكن .. أن تتحول القضية الى مرارة متواصلة .. والى « حقد اسود .. مستعر او مستقر » والى « حواديت وقصص وحكايات » قليلها صحيح ، وموجع ، واليم .. وكثيرها « من نسج الخيال» اصطناعا لبطولة لم تحدث ، أو ابتداعا لبسالة لم يكن لها وجود .. فذلك — بالتأكيد — هو مانستنكره منهم .. ونأباه عليهم . لماذا ؟ لانه ، من ناحية ، « متاجرة بالالام »

حيث لا يصح لانسان يحترم نفسه .. ويحترم كرامته .. ان يتاجر بأحزانه ولا بآلامه .. ولانه ، من ناحية اخرى ، لن يكون له من نتيجة عملية غير « الخصم من رصيدهم » لدى الذين يتابعون ــ ان كان هناك من يتابعون ــ حكاياتهم وحواديتهم .. ألتى تجافى العقل ، وتخاصم المنطق ، وتفتقر حتى الى عنصر التشويق ألذى لا تخلو منه ــ عادة حواديت الصغار !!

ان كلمة الحق ــ أيا ماكان اتجاه الريح التى تحملها ــ انما تستمد قيمتها ، وقامتها ، وقوتها .. من قدرتنا على ان نقولها فى حق خصومنا ، قبل اصدقائنا ، واحسبنى فى كل ماقلته عن « عبد الناصر » وايضــا فى كـــل ماسوف اقوله عنه ، لم افعل .. ولن افعل .. اكثر من اننى احاول ان أقول فيه « كلمة حق » مبرأة مــن الحقد ومن المرارة .. ومنزهة عن الانحياز وعن الانبهــار والهوى .. ومعتمدة اساسا ــ وبالدرجة الاولى ــ على تصميم راسخ من جانبى على ان انظر أليه بكلتا عينى .. ومن كل الزوايا .. وليس بعين واحدة فقط .. ولا من زاوية واحدة فحسب .

هذه ــ ببساطة شديدة ــ هى كل ابعاد موقفى من عبد الناصر .. ولعلها ان تكون مقنعة لكل أولئك الذين قالوا .. ويقولون . انهم لا يستطيعون آن يفهموا موقفى ، او ان امرى يحيرهم !!

رقم الايداع ٤٤٣٢ ـ ١٩٨٧

الترقيم الدولى : ٧ ـ ٣٠٨ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN